الفصل الرابع

أخلاق النبي ﷺ مع أعدائه بعد الحرب

- المبحث الأول: عفو النبي ﷺ عن أعدائه ومسامحته لهم.
- المبحث الثاني: آداب النبي ﷺ مع أسرى الأعداء.
- المبحث الثالث: آداب النبي ﷺ عند النصر.

obeikandl.com

obeikandl.com

المبحث الأول

عفو النبي ﷺ عن أعدائه ومسامحته لهم

- المطلب الأول: عفو النبي ﷺ عن أعدائه.
- المطلب الثاني: مسامحة النبي ﷺ لأعدائه.

المطلب الأول

عفو النبي ﷺ عن أعدائه

العفو: هو التجاوز عن الذنب، وترك العقاب عليه، وأصله: المحو والطمس، وقوله تعالى: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ﴾ [التوبة: ٤٣]، معناه: محا الله عنك، مأخوذة من قولهم: عفت الرياح الآثار: إذا درستها ومحتها[1].

وإن من أخلاقه ﷺ العفو عمن أساء إليه، فما كان يقابل السيئة بالسيئة، إنما يعفو ويصفح، فتراه ﷺ يصدر عفوًا عامًّا عن المجتمع حينًا، وعفوًا خاصًّا عمن أراد قتله والغدر به أحيانًا أخرى.

أولاً: إصداره ﷺ العفو العام

وهذا العفو أصدره ﷺ حين فتح مكة (٨هـ) وخطب فيها خطبته المشهورة، ثم قال أخيرًا مخاطبًا جماهير قريش: «**يا معشر قريش، ما ترون أني فاعل بكم؟ قالوا: أخ**

---

(١) ر: لسان العرب (١٥/ ٧٢)، المصباح المنير ص (٢١٧) مادة: (عفا).

كريم، وابن أخ كريم، قال: اذهبوا فأنتم الطلقاء»[(١)]، وفي رواية: «**فإني أقول لكم كما قال يوسف لإخوته: ﴿ قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ ﴾**[يوسف: ٩٢] **اذهبوا فأنتم الطلقاء»**[(٢)]. فهل نسي ﷺ إيذاء قريش له، في مواقف عدة، وأزمنة مختلفة: في وضع سلا الجزور على ظهره وهو يصلي، في حصار الشعب، وعندما تآمروا على قتله؟ وهل نسي ﷺ إيذاءهم لأصحابه: قتلوا سمية أم عمار، وعذبوا ابنها وزوجها، عذبوا بلالاً، وضربوا ابن مسعود وغيرهم وغيرهم؟ لم ينس ﷺ كل هذه الأحداث، ولكن ما هو إلا العفو والصفح «**اذهبوا فأنتم الطلقاء**»! فإنك لا تجد قائدًا في العالم، مهما بلغ من جلال الإنسانية، ورفعة العلم، وذروة الخلق، يخاطب أعداءه الذين استباحوا قتله، وبعدما استباحوا من دماء المسلمين، يخاطبهم حين ظنوا أنهم ألقيت عليهم قيود السلطة والجبروت، وأنهم أصبحوا أسرى في يديه، يفعل بهم من جنس صنيعهم أو أشد، يخاطبهم منكِرًا أنهم أسرى، أو مقيدون، فيقول: «**اذهبوا فأنتم الطلقاء**»[(٣)] لا شك أنها أخلاق النبوة.

ثانيًا: عفوه الخاص ﷺ عمن أرادوا الغدر به

وهذا الخلق تكرر منه ﷺ في عدة مواضع، وفي كل مرة يريدون الغدر به ﷺ، بعد أن يزيغ الشيطان قلوبهم، فينكشف أمرهم، فيحسن إليهم ﷺ، ويعفو عنهم، فتصلح أحوالهم، وتنقلب عداوتهم للنبي ﷺ محبة وفداءً له، ومن هذه:

١- عفوه ﷺ عمن جاء إلى المدينة يريد قتله، فقابله ﷺ بالعفو والإحسان،

---

(١) ر: سيرة ابن هشام (٢/ ٤١٢)، عيون الأثر (٢/ ٢٣٠)، البداية والنهاية (٤/ ٣٤٨).

(٢) ر: فقه السيرة (الغزالي) ص (٤٢٧).

(٣) ر: أخلاق النبي ﷺ في القرآن والسنة (٢/ ٥٩٨).

فقد روى عمير بن وهب الجمحي[١]، وذلك أنه جلس مع صفوان بن أمية في الحجر، وكان عمير من شياطين قريش، وكان ممن يؤذي النبي ﷺ وأصحابه في مكة، وكان ابنه وهب بن عمير في أسارى بدر، فذكر أصحاب القليب ومصابهم، فقال صفوان: ليس في العيش بعدهم خير، فقال له عمير: صدقت، أما والله لولا دَيْنٌ عليَّ، ليس له عندي قضاء، وعيال أخشى عليهم الضّيعة بعدي، لركبت إلى محمد حتى أقتله، فإن لي قبلهم عِلّة، ابني أسير في أيديهم. فاغتنمها صفوان وقال له: علي دينك، أنا أقضيه عنك، وعيالك مع عيالي أواسيهم ما بقوا. ثم إنه شحذ سيفه وسمّه، وانطلق إلى المدينة، فأناخ على باب المسجد، ودخل على النبي ﷺ متوشحًا سيفه، وعمر رضي الله عنه ممسك بحمالة السيف خشية الغدر، فلما رآه النبي ﷺ قال: «**أرسله يا عمر، أُدنُ يا عمير**» فدنا ثم قال: أَنْعِموا صباحًا، وكانت تحية أهل الجاهلية بينهم، فقال رسول الله ﷺ: «**قد أكرمنا الله بتحية خير من تحيتك يا عمير، بالسلام، تحية أهل الجنة**» فقال: أما والله يا محمد إن كنت بها لحديث عهد، قال: «**فما جاء بك يا عمير؟**» قال: جئت لهذا الأسير الذي في أيديكم، فأحسنوا فيه، قال: «**فما بال السيف في عنقك؟**» قال: قبحها الله من سيوف، وهل أغنت عنا شيئًا؟ قال: «**أصدقني، ما الذي جئت له؟**» قال: ما جئت إلا لذلك، قال: «**بل قعدت أنت وصفوان بن أمية في الحجر، فذكرتما أصحاب القليب من قريش، ثم قلت: لولا دين عليّ وعيال عندي لخرجت حتى أقتل محمدًا، فتحمل لك صفوان بدينك وعيالك، على أن تقتلني له، والله حائل بينك وبين ذلك**» قال عمير: أشهد أنك رسول الله، قد كنا يا

---

(١) هو: عمير بن وهب بن خلف بن حذافة بن جمح القرشي، أبو أمية، هاجر بعد إسلامه إلى المدينة، وشهد أحدًا وما بعدها، وشهد فتح مكة وتبوك وعاش إلى خلافة عمر رضي الله عنه. ر: الإصابة (٤/ ٦٠٣).

رسول الله نكذبك بما كنت تأتينا به من خبر السماء، وما ينزل عليك من الوحي، وهذا أمر لم يحضره إلا أنا وصفوان، فوالله إني لأعلم ما أتاك به إلا الله، فالحمد لله الذي هداني للإسلام، وساقني هذا المساق، ثم شهد شهادة الحق، فقال رسول الله ﷺ: **«فقهوا أخاكم في دينه، وأقرئوه القرآن، وأطلقوا له أسيره»** ففعلوا[١].

فانظر إلى هذه المحاورة والملاطفة منه ﷺ مع من جاء يريد قتله، ممتلئًا قلبه حقدًا وكراهية، كيف أذن له بالدخول بسيفه، ثم أخذ يلاطفه، وأخيرًا عفا عنه وأطلق له أسيره. ثم انظر إلى أثر هذا العفو في نفس عمير، كيف أسلم، بخلاف ما لو عامله ﷺ بمثل مقصوده، ماذا عسى أن تكون النتيجة.

٢- عفوه ﷺ عمن اخترط عليه سيفه يريد قتله. فقد روى جابر بن عبد الله رضي الله عنهما أنه غزا مع رسول الله ﷺ قبل نجد (غزوة ذات الرقاع ٤هـ)[٢]، فلما قفل رسول الله ﷺ قفل معه، فأدركتهم القائلة في وادٍ كثير العضاة[٣]، فنزل رسول الله ﷺ وتفرّق الناس في العِضاة يستظلون بالشجر، ونزل رسول الله ﷺ تحت سَمُرة فعلق بها سيفه، قال جابر: فنمنا نومة، فإذا رسول الله ﷺ يدعونا، فجئناه، فإذا عنده أعرابي[٤] جالس، فقال رسول الله ﷺ: **«إن هذا اخترط سيفي وأنا نائم، فاستيقظت وهو في يده صلتًا، فقال لي: من يمنعك مني؟ قلت:**

---

(١) ر: سيرة ابن هشام (٢/ ٦٦١ - ٦٦٢)، الرحيق المختوم ص (٢٥٢ - ٢٥٣).

(٢) اختلف في تاريخها: فقيل سنة (٤هـ)، بعد غزوة بني النضير، وقبل الخندق، وقيل: سنة (٥هـ)، وقيل: سنة (٧هـ)، بعد خيبر. ر: فتح الباري (٧/ ٤٨١ - ٤٨٢).

(٣) العضاة: بكسر العين، كل شجر يعظم له شوك، وقيل: هو العظيم من السَّمُر مطلقًا. ر: فتح الباري (٧/ ٤٩٢).

(٤) قيل: اسمه: غورث بن الحارث، وقيل: دعثور. ر: فتح الباري (٧/ ٤٩٣).

الله، فهاهو ذا جالس. ثم لم يعاقبه رسول الله ﷺ»[١]. وفي رواية لابن إسحاق: «**فدفع جبريل في صدره، فوقع السيف من يده، فأخذه النبي ﷺ وقال: من يمنعك أنت منّي؟**» قال: لا أحد، قال: «**قم فاذهب لشأنك**» فلما ولى قال: أنت خير منّي. وفي رواية أخرى: فقال الأعرابي: غير أني أعاهدك أن لا أقاتلك، ولا أكون مع قوم يقاتلونك، فخلّى سبيله، فجاء إلى أصحابه فقال: جئتكم من عند خير الناس[٢]. ويُفْهَم من ذلك أنه عفا عنه ﷺ، ولمّا يسلم بعد. وفي رواية للواقدي: أنه أسلم، وأنه رجع إلى قومه فاهتدى به خلق كثير[٣]. قال ابن حجر: «فمنّ عليه لشدة رغبة النبي ﷺ في استئلاف الكفار ليدخلوا في الإسلام، ولم يؤاخذه بما صنع، بل عفا عنه»[٤].

٣- ومنها: عفوه ﷺ عن اليهودية التي أهدته شاةً مسمومة، تريد قتله ﷺ، وذلك في غزوة خيبر (٧هـ) فعفا عنها. فعن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما أن يهودية من أهل خيبر سمّت شاةً مصلية[٥]، ثم أهدتها لرسول الله ﷺ، فأخذ رسول الله الذراع فأكل منها، وأكل رهط من أصحابه معه، ثم قال لهم رسول الله ﷺ: «**ارفعوا أيديكم، وأرسل رسول الله ﷺ إلى اليهودية فدعاها، فقال لها: أسممت هذه الشاة؟**» قالت اليهودية: من أخبرك؟ قال: «**أخبرتني هذه في يدي - للذراع -**» قالت: نعم، قال: «**فما أردت إلى ذلك؟**» قالت: قلت: إن كان نبيًّا فلن

---

(١) البخاري (٤١٣٥) كتاب المغازي، باب: غزوة ذات الرقاع.

(٢) ر: فتح الباري (٧/ ٤٩٣).

(٣) ر: فتح الباري (٧/ ٤٩٢).

(٤) ر: المرجع السابق نفسه.

(٥) أي: مشويّة على النار.

يضرّه، وإن لم يكن نبيًّا استرحنا منه، فعفا عنها رسول الله ﷺ، ولم يعاقبها[١].

وفي رواية لأبي هريرة رضي الله عنه: فمات بشر بن البراء بن معرور، فأرسل إلى اليهودية وذكر الحديث. قال: فأمر بها رسول الله ﷺ فقتلت[٢]. فثمة إشكال: فكيف عفا، وكيف أمر بها ﷺ فقتلت؟ قال ابن حجر: « قال البيهقي: يحتمل أن يكون تركها أولاً، ثمّ لما مات بشر بن البراء من الأكلة قتلها، وبذلك أجاب السهيلي وزاد: إنه كان تركها؛ لأنه كان لا ينتقم لنفسه، ثم قتلها ببشر قصاصًا»[٣].

٤- ومنها: عفوه ﷺ عن فضالة بن عمير[٤]، عندما أراد قتله ﷺ وهو يطوف عام الفتح (٨هـ)، فلما دنا منه قال رسول الله ﷺ: «**أفضالة؟**» قال: نعم فضالة يا رسول الله، قال: «**ماذا كنت تحدث به نفسك؟**» قال: لا شيء، كنت أذكر الله، قال: «**فضحك النبي ﷺ ثم قال: استغفر الله، ثم وضع يده على صدره، فسكن قلبه**» فكان فضالة يقول: والله ما رفع يده عن صدري حتى ما من خلقِ الله شيء أحب إليّ منه[٥].

---

(١) أبو داود (٤٥١٠) كتاب الديات، باب: فيمن سقى رجلاً سمًّا أو أطعمه فمات، أيقاد منه؟.

(٢) أبو داود (٤٥١٢) الكتاب والباب السابقان.

(٣) ر: فتح الباري (٧/ ٥٦٩).

(٤) أورده ابن حجر في الإصابة، وذكر له بيتين في تكسير الأصنام عام الفتح، قال فيها: [البحر الكامل]

لو ما رأيت محمدًا وجنوده ... في الفتح يوم تكسّر الأصنام

لرأيتَ نور الله أصبح بيّنًا ... والشّرك يغشى وجهه الإظلام

ولم يعرف به أكثر من ذلك. ر: الإصابة (٥/ ٢٨٥).

(٥) ر: سيرة ابن هشام (٢/ ٤١٧)، البداية والنهاية (٤/ ٣٥٥)، فقه السيرة (البوطي) ص (٢٨١).

٥- ومنها: عفوه ﷺ عن شيبة بن عثمان الحجبي[١]، عندما أراد الغدر به عام الفتح (٨هـ) أيضًا، وذلك عندما سار معه ﷺ إلى حنين، وقال: فعسى إن اختلطوا أن أصيب منه غِرّةً، فأثأر منه، وعندما سنحت له الفرصة قال: فدنوت أريد ما أريد منه، ورفعت سيفي حتى كدت أشعره إياه، فرُفع لي شواظ من نار كالبرق كاد يمحشني[٢] فوضعت يدي على بصري خوفًا عليه، فالتفت إلي رسول الله ﷺ فناداني: «**يا شيب ادن مني**» فمسح صدري، ثم قال: «**اللهم أعذه من الشيطان**» فوالله لهو كان ساعتئذٍ أحبّ إلي من سمعي وبصري ونفسي، وأذهب الله ما كان في نفسي... ثم قال: «**يا شيب ! الذي أراد الله بك خير مما أردت لنفسك**» ثم حدثني بكل ما أضمرت في نفسي ما لم أكن أذكره لأحد قط، قال: فقلت: فإني أشهد أن لا إله إلا الله، وأنك رسول الله، ثم قلت: استغفر لي، فقال: «**غفر الله لك**»[٣].

فقد أوردت هذه الأحداث الخمسة، مع الإطالة بعض الشيء للتوكيد على تحقق معنى العفو، وبأجمل صوره لدى النبي ﷺ، فما كان ليقابل الحقد بالحقد والكراهية بمثلها، إنما يقابلها بلين الكلام، وجميل العبارة، والصفح عن المخطئ، فيبدل الله ما في قلوب هؤلاء الأعداء، من كراهية فيجعلها محبةً وولاءً، وما في

---

(١) هو: شيبة بن عثمان (الأوقص) بن أبي طلحة، خاله مصعب بن عمير رضي الله عنه، أعطاه النبي ﷺ وعثمان بن طلحة مفاتيح الكعبة وقال: خذوها يا بني أبي طلحة خالدة تالدة، لا يأخذها منكم إلا ظالم. أقام الحج وصلى بالناس عام (٣٩هـ). توفي سنة (٥٩هـ). ر: الإصابة (٣/ ٢٩٨).

(٢) المحش: إحراق النار للجلد، ومحشته النار: أحرقته. ر: لسان العرب (٦/ ٣٤٥) مادة: (محش).

(٣) ر: زاد المعاد (٣/ ٤٧٠ - ٤٧١).

نفوسهم من حقد فيصبح إخلاصًا ووفاءً، فتراه يعفو عن عمير بن وهب الجمحي، وهو ما جاء من مكة إلى المدينة إلا لقتله ﷺ بعد أن تعهد له صفوان بن أمية بدينه وعياله، ويطلق له أسيره. ويعفو عن الأعرابي الذي اخترط عليه سيفه، ويقول له: قم فاذهب لشأنك، مع أنه لم يثبت أنه أسلم ساعتها. ويعفو عن اليهودية التي صرحت بأنها تريد الخلاص منه، إنما أخذها بالقصاص لصاحبه بشر بن البراء رضي الله عنه، لا لنفسه ﷺ. وتراه يعفو عن فضالة بن عمير الذي أراد الغدر به أثناء الطواف، بعد أن أطلعه ربه سبحانه وتعالى عما يحدث به نفسه، ويضحك من قوله عندما سأله عما يحدث به نفسه، فقال: لا شيء، أذكر الله، ثم يضع يده الشريفة على صدره ليسكن قلبه؛ اهتمامًا بشأنه، ومثل ذلك فعله ﷺ مع شيبة بن عثمان الحجبي، بل ناداه بقوله ﷺ: «يا شيب» وذلك علامة التحبب. فلا شك أنها أخلاق المبعوث رحمةً للعالمين.

المطلب الثاني

مسامحة النبي ﷺ لأعدائه

السماحة: تعني الجود، تقول: سمح الرجل: إذا أجاد وأعطى عن كرم وسخاء، كما تعني المساهلة في الأمور[(١)].

ويبدو أن العلاقة بين العفو والمسامحة (موضوع المبحث الأول) علاقة عموم وخصوص مطلق، فالمسامحة أعمّ من العفو، الذي هو نوع من أنواع المساحة.

ولقد تجلى هذا الخلق في حياة النبي ﷺ مع أصحابه ومع أعدائه، فكان سمح النفس ﷺ كريمًا، ومما يؤكد ذلك: السماحة بردّ الفيء، الإقامة على عَرْصَة القوم أيامًا بقصد إكرامهم، مسامحة من جاء تائبًا مسلمًا وإكرامه.

---

(١) ر: لسان العرب (٢/ ٤٨٩) مادة: (سمح).

أولاً: سماحته ﷺ بردّ الفيء

الفيء: هو الغنيمة التي لا يلحق بها مشقة[١]، أي: تحصل دون حرب.

ولقد كان من سماحته ﷺ ردّ الفيء إلى أصحابه؛ وذلك تأليفًا للقلوب، وتعبيرًا عن صدق الطوية، وحسن النية، بأن الإسلام ما جاء ليحرص على تجميع الغنائم والأموال لأهله، إنما لمعنًى سامٍ آخر.

ومما يؤكد ذلك أن وقعت بعض أموال قريش في قبضة النبي ﷺ ثم ردّها إلى أهلها بعد استئذان أصحابه في ذلك[٢].

فقد بعث ﷺ زيد بن حارثة بسرية إلى العيص[٣] (٦هـ)، وظفروا بتجارة لقريش مع أبي العاص بن الربيع[٤] - زوج زينب بنت رسول الله ﷺ واستاقوا الإبل، وأفلت هو، وقدموا على رسول الله ﷺ، فقسمه بينهم، ثم جاء بعد ذلك أبو العاص مستجيرًا بزينب رضي الله عنها، وسألها أن تطلب من رسول الله ﷺ ردّ ماله عليه، وكان معه من أموال الناس، فدعا رسول الله ﷺ السريّة فقال: «**إن هذا الرجل منا حيث قد علمتم**[٥]**، وقد أصبتم له مالاً ولغيره، وهو فيء الله الذي أفاء**

---

(١) ر: المفردات في غريب القرآن ص (٣٩٠).

(٢) ر: فقرة: استئذانه ﷺ أصحابه بالغنائم والسبي، من الفصل الأول من هذا البحث.

(٣) مكان على بعد أربع ليالٍ من المدينة. ر: زاد المعاد (٣/ ٢٨١).

(٤) هو: أبو العاص بن الربيع بن عبد العزيز، أمه هالة بنت خويلد، اختلف في اسمه: فقيل: لقيط، وقيل: الزبير، وقيل: هشيم، وقيل: ياسر، وزوجته زينب هي أكبر بنات النبي ﷺ، وهي ابنة خالته خديجة رضي الله عنها، أسلم سنة (٦هـ)، بعدما أعاد تجارة قريش لأهلها، قال عنه ﷺ: «حدثني فصدقني، وواعدني فوفاني»، توفي سنة (١٢هـ) في خلافة أبي بكر رضي الله عنه. ر: البداية والنهاية (٦/ ٤٣٤)، الإصابة (٧/ ٢٠٦).

(٥) أي: هو صهر النبي ﷺ.

عليكم، فإن رأيتم أن تردوا عليه فافعلوا، وإن كرهتم فأنتم وحقُّكم» فقالوا: بل نردُّه يا رسول الله، فردُّوا عليه ما أصابوا[1].

فانظر إلى سماحة نفسه ﷺ أوَّلًا، وسماحة نفس أصحابه ثانيًا، فالنفس الكريمة تأبى إذا طلب منها شيء أن تضنّ به، ويعزّ عليها أن تردّ السائل خائبًا، وبذلك لم يقف ﷺ موقفًا سلبيًا من القضية، وكان يسعه أن يعتذر قائلاً: خرج الأمر من يدي، وتملك المال أهله، وانتهى، ولكن عرض الأمر على أصحابه، فأجابتهم نفوسهم السمحة: بل نردّه يا رسول الله، وردوا كل شيء.

وليُتَنَبَّه إلى أن هذه المسامحة ليست قاصرة على أبي العاص صهر النبي ﷺ، بل هي مسامحة عامة لأهل قريش، أصحاب التجارة، وإلا فكان يكفيه ﷺ أن يرد عليه ماله وحده، ويبقي باقي أموال قريش، وهو رزق حلال له، أباحه الله تعالى في محكم كتابه، ولكن ما هي إلا المسامحة وكرم النفس.

ثانيًا: الإقامة على عَرْصة القوم أيامًا بقصد إكرامهم

لقد كان من عادته ﷺ بعد انجلاء المعركة، الإقامة في أرضها أو قربًا منها بضعة أيام، فلا يسارع بالرجوع إلى أهله بعدها مباشرة، وهذا ما فعله ﷺ عدة مرات.

---

(١) ر: زاد المعاد (٣/ ٢٨١ - ٢٨٢)، البداية والنهاية (٦/ ٤٣٤).

قال ابن القيم: « حتى إن الرجل ليأتي بالشَّنّ، والرجل بالإداوة، والرجل بالحبل، فما تركوا قليلاً أصابوه ولا كثيرًا إلا ردّوه عليه، ثم خرج حتى قدم مكة، فأدّى إلى الناس بضائعهم، حتى إذا فرغ قال: يا معشر قريش ! هل بقي لأحد منكم معي مالٌ لم أردّه عليه؟ قالوا: لا، فجزاك الله خيرًا، قد وجدناك وفيًا كريمًا، قال: أما والله ما منعني أن أسلم قبل أن أقدم عليكم إلا تخوّفًا أن تظنّوا أني إنما أسلمت لأذهب بأموالكم، فإني أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا عبده ورسوله ». ر: زاد المعاد (٣/ ٢٨٢)، المرجع السابق.

والحقيقة أني أحببت أن أعرف السرّ في ذلك، فوجدت للعلماء وشراح الحديث تفسيرات لذلك، وتوجيهات له، ولقد بدا لي - والله أعلم - من استقراء الحوادث، أن النبي ﷺ كان يقيم هذه الأيام عقب المعركة، منتظرًا عودة الأعداء، تائبين مسلمين، طالبين الغنائم والسَّبي؛ ليقع منه ﷺ المنّ عليهم، والإحسان إليهم، فيكون ذلك خيرًا وبركة على العدو، بترغيبهم في الإسلام، وتأليف قلوبهم، وخيرًا وبركة على المسلمين أنفسهم، بفيء إخوانهم إلى سبيل الإسلام، وهو المقصود أولاً وأخيرًا من الحروب كلها.

فقد روى أنس بن مالك عن أبي طلحة رضي الله عنهما عن النبي ﷺ: «**أنه كان إذا ظهر على قوم أقام بالعَرْصة[1] ثلاث ليالٍ**»[2].

ولقد فسّر العلماء الحديث تفسيرات مختلفة، ووجهوا الأمر توجيهات معتبرة، أوردها ابن حجر في الفتح: « قال المهلب: حكمة الإقامة: لإراحة الظهر - أي الخيل والإبل - والنفس... وقال ابن الجوزي: إنما كان يقيم ليظهر تأثير الغلبة، وتنفيذ الأحكام، وقلة الاحتفال، فكأنه يقول: من كانت فيه قوة منكم فليرجع إلينا، وقال ابن المنيّر: يحتمل أن يكون المراد أن تقع ضيافة الأرض التي وقعت فيها المعاصي، بإيقاع الطاعة فيها بذكر الله، وإظهار شعائر المسلمين»[3].

---

(١) **العَرْصَة**: بفتح العين والصاد وسكون الراء: البقعة الواسعة بغير بناء، من دار ونحوها. ر: لسان العرب (٧/ ٥٢ - ٥٣)، فتح الباري (٦/ ٢٠٩).

(٢) البخاري (٣٠٦٥) كتاب الجهاد والسير، باب: من غلب العدو، فأقام على عرصتهم ثلاثًا، أبو داود (٢٦٩٥) كتاب الجهاد، باب: في الإمام يقيم عند الظهور على العدو بعرصتهم (واللفظ للبخاري).

(٣) ر: فتح الباري (٦/ ٢١٠).

والملاحظ لهذه الأقوال الثلاثة يرى أنها وجيهة، لكنها لا تحقق مقصدًا من أجل الدعوة الإسلامية، التي ما شرع الحرب والجهاد إلا من أجلها:

- فالقول الأول: يفيد بأن الحكمة من الإقامة، إراحة الظهر والأنفس، وهو جميل، لكن الراحة المذكورة تتحقق بجزءٍ من ذلك، يومٍ أو بعض يوم، لا ثلاثة أيام، وفي بعضها بضعة عشر يومًا، ولا سيما أن النبي ﷺ يحثّ على الإسراع بالإقفال والعودةِ إلى الأهل في السفر، على أنه قطعة من العذاب، قائلاً: «**السفر قطعة من العذاب، يمنع أحدكم طعامه وشرابه ونومه، فإذا قضى أحدكم نَهْمَته**[1] **من سفره فليعجل إلى أهله**»[2]. وهذا في مطلق السفر، فكيف لو جمع مع السفر القتل والقتال، ومشاقّ الجهاد، فالتعجيل إلى الأهل ينبغي أن يكون أولى.

- والقول الثاني: مفاده أن الحكمة من ذلك: إظهار الغلبة وعزة الإسلام، وعدم الاحتفال بالعدو، وإظهار التحدّي، وهذا المعنى مطلوب، لكن لا يحقق معنًى دعويًّا، يُتوخَّى من وراء الجهاد، فليس فيه شيء من تأليف القلوب، والإحسان إلى المشركين، الذي كان من هديه ﷺ مع الناس.

- والقول الثالث: وهو توجيه تعبديٌّ محض، لا صلة له بالأقوام المدعوّة إلى الإسلام، والمقاتلة من أجله.

---

(١) **النّهمة**: هي قضاء الحاجة من الشيء ووطره من السفر. ر: لسان العرب (١٢/ ٥٩٣). مادة: (نهم)، فتح الباري (٣/ ٧٢٩).

(٢) البخاري (١٨٠٤) كتاب العمرة، باب: السفر قطعة من العذاب، مسلم (١٩٢٧) كتاب الإمارة، باب: السفر قطعة من العذاب، واستحباب تعجيل المسافر إلى أهله بعد قضاء شغله.

فما كانت هذه الإقامة، وهـذا الانتظـار إلا لمقـصدٍ دعـوي آخـر، ألا وهـو الإحسان للعدو، والإنعام عليه، والغزوات التالية تؤكد هذه الإقامة:

١- فبعد غزوة بدر (٢هـ) أقـام ﷺ ثلاثًـا، ثـم قـسّم الغنـائم، وارتحـل إلى المدينة[١].

٢- وفي غزوة بني سـليم بالكُـدْر[٢] (٢هــ) أصـاب ﷺ إبـلاً كـثيرة، تقـدر بخمسمائة، وأقام ﷺ في ديارهم ثلاثة أيام، ثم رجع إلى المدينة[٣].

٣- وفي غزوة دومة الجندل (٣هـ) أقام ﷺ بعد الإغارة عدة أيام، فلم يأتـه أحد، ثم رجع إلى المدينة[٤].

٤- وفي غزوة وادي القرى (٧هـ) وهو المكان الفاصل بين أراضي الحجـاز والشام، أقام ﷺ في أراضيهم بعد انجلاء المعركة أربعة أيام ثم رجع[٥].

٥- وبعد غزوة حنين (٨هـ) أقام ﷺ بالجُعرانة بضعة عـشر ليلـة[٦]، ينتظـر هوازن، إلى أن جاؤوا يطلبون السّبي والمـال، فقـال ﷺ: «**أحبُّ الحديث إليَّ أصدقه، فاختاروا إحدى الطائفتين: إما السّبي وإما المال، وقد استأنيت بكم**»[٧] أي: انتظـرت قدومكم !.

---

(١) ر: البداية والنهاية (٣/ ٣٤٦)، الرحيق المختوم ص (٢٤٦).

(٢) الكُدْر: مكان يقع شرقي المدينة، على الطريق التجارية بين مكة والشام.

(٣) ر: الرحيق المختوم ص (٢٥٢)، فقه السيرة (الجميلي) ص (١٧٥).

(٤) ر: زاد المعاد (٣/ ٢٥٦).

(٥) ر: زاد المعاد (٣/ ٣٥٥).

(٦) البخاري (٤٣١٨) كتاب المغازي، باب: قولـه تعـالى: ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ﴾، زاد المعاد (٣/ ٤٧٣).

(٧) البخاري (٤٣١٩) كتاب المغازي، باب: قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ﴾.

والملاحظ أن هذه الأخيرة، انتظاره في الجعرانة هوازن بضعة عشر يومًا تفسِّر إقاماته السابقة ﷺ عقب المعركة، ويؤكده قوله ﷺ: «**وقد استأنيت بكم**» أي: أن إقامتي هذه كلها كانت من أجلكم.

قال ابن حجر: «ومعنى «**استأنيت بكم**»: استنظرت، أي: أخرت قسم السّبي لتحضروا فأبطأتم... قد استأنيت بكم حتى ظننت أنكم لا تقدمون، وقد قسمتُ السّبي»[(١)].

وقال ابن القيم تعليقًا على غزوة حنين: « ومنها: جواز انتظار الإمام بقسم الغنائم إسلام الكفار، ودخولهم في الطاعة، فيردّ عليهم غنائمهم وسبيهم»[(٢)].

فالمعنى المراد من الانتظار هنا واضح جليّ، وهو أن يأتي القوم فيطلبوا منه السّبي فيرده عليهم، ولذلك عندما ظَعَنَ ﷺ عن ثقيف قال له رجل: يا رسول الله، ادعُ عليهم فقال: «**اللهم اهدِ ثقيفًا وائت بهم**»[(٣)]، وكان ذلك بفضله سبحانه وتعالى.

وعلى هذا، فلو أن قريشًا رجعت إليه بعد غزوة بدر أثناء إقامته ثلاثًا، لردّ إليها ﷺ وأكرمها وأحسن إليها، كما فعل بهوازن وثقيف، وكذلك أصحاب (الكُدْر) فلو أنهم رجعوا إليه ﷺ لرد عليهم - والله أعلم - إبلهم وأحسن إليهم، وكذلك أهل دومة الجندل، ووادي القرى، فلو أنهم آبوا إليه ﷺ أثناء إقامته وانتظاره لردّ إليهم؛ لأنه ﷺ يحرص على تأليف القلوب، والإحسان إليها بصنائع المعروف، ويتعبد ربه بذلك ﷺ، بخلاف صنيع أعدائه مع المسلمين، فلم يكن همه ﷺ يومًا من الأيام القتل والسَلب والغنيمة، ولو كان كذلك لما انتظر في أرض

---

(١) ر: فتح الباري (٧/ ٦٢٩).

(٢) ر: زاد المعاد (٣/ ٤٨٣ - ٤٨٤).

(٣) ر: البداية والنهاية (٤/ ٤٠٨).

المعركة أيامًا، ولقَفَلَ مسرعًا إلى أهله، مغتبطًا بما حصل عليه وأصحابه من السّبي والمال.

ويؤكد هذا المعنى، منُّه ﷺ على عدوه بالسّبي عدة مرات[١].

ثالثًا: مسامحته ﷺ لمن جاء تائبًا مسلمًا

فثمة أناس من المشركين، تميّزوا بذمهم الإسلام، وإيذائهم رسول الله ﷺ والمسلمين، فأهدر النبي ﷺ دمهم، وكان من هذا الصنف: كعب بن زهير[٢] الشاعر المعروف، فلقد أسلم أخوه بُجير، فقال قصيدة يذمّ فيها الإسلام وأهله، وهي: [البحر الطويل].

ألا بلغا عني بجيرًا رسالةً ... على أي شيء وَيْبُ[٣] غيرك دلّكا
على خلقٍ لم تُلفِ أمًّا ولا أبًا ... عليه ولم تدرك عليه أخًا لكا
سقاك أبو بكرٍ بكأسٍ رويةٍ ... فأنهلك المأمور منها وعلّكا[٤]

---

(١) وهذا ما سيمرّ بنا في مطلب: إكرام النبي ﷺ لأسرى الأعداء.

(٢) هو: كعب بن زهير بن أبي سلمى، المازني، أبو المضرّب، من أهالي نجد، أبوه الشاعر الجاهلي المشهور، وأخوه وأبناؤه وأحفاده شعراء، كثر مخمّسو لاميته المشهورة، وترجمت إلى الإيطالية، توفي سنة (٢٦هـ). ر: الإصابة (٥/ ٤٤٣)، الأعلام (٥/ ٢٢٦).

(٣) الوَيْبُ: بمعنى الويل. ر: لسان العرب (١/ ٨٠٥) مادة: (ويب)، وفي بعض النسخ وردت: (دين غيرك).

(٤) ر: هذه الأبيات في سيرة ابن هشام (٢/ ٥٠٢)، الإصابة (٥/ ٤٤٣)، مع الاختلاف اليسير.

فبلغت أبياته رسولَ الله ﷺ فقال: «**من لقي كعبًا فليقتله**»، فكتب له أخوه بجير كتابًا يقول فيه: النجاء، ثم كتب إليه: أنه لا يأتيه أحد مسلمًا إلا قبل منه، وأسقط ما كان قبل ذلك. فجاء زهير إلى المدينة، وصلى الصبح مع رسول الله ﷺ ثم قام إليه حتى جلس بين يديه، فوضع يديه في يده، وكان رسول الله ﷺ لا يعرفه، فقال: يا رسول الله، إن كعب بن زهير قد جاء ليستأمن منك تائبًا مسلمًا، فهل أنت قابل منه إن أنا جئتك به؟ فقال رسول الله ﷺ: «**نعم**» قال: أنا يا رسول الله كعب بن زهير، فوثب عليه رجل من الأنصار فقال: يا رسول الله دعني وعدوّ الله أضرب عنقه، فقال رسول الله ﷺ: «**دعه عنك، فإنه قد جاء تائبًا، نازعًا**[1] **عما كان عليه**» ثم قال قصيدته المشهورة: [البحر البسيط]

بانت سعاد فقلبي اليوم متبول ... متيّم إثرها لم يُفدَ مكبولُ[2]

نبئت أن رسول الله أوعدني ... والعفو عند رسول الله مأمولُ[3]

إن الرسول لنور يستضاء به ... مهنّد من سيوف الله مسلولُ

إلى آخر القصيدة، فسامحه رسول الله ﷺ، ورضي عنه، وكساه بردته[4].

---

(١) أي: مقلعًا عن ذنبه. ر: المصباح المنير ص (٣٠٩) مادة: (نزع).

(٢) **بانت**: فارقت فراقًا بعيدًا. **وسعاد**: امرأته وبنت عمه، خصها بالذكر لطول غيبته عنها؛ لهروبه من النبي ﷺ. **متبول**: أسقمه الحب وأضناه. **متيّم**: ذليل مستعبد. **لم يفد**: لم يخلص من الأسر.

(٣) **أوعدني**: توعّده رسول الله ﷺ بالقتل، كما توعّد الشاعر المؤذي مثله، والذي قتله النبي ﷺ ابن خطل.

(٤) ر: سيرة ابن هشام (٢/ ٥٠١)، الرحيق المختوم ص (٤٤٩).

وممن سامحهم ﷺ مع شدة إيذائهم: هند بنت عتبة، ووحشيّ، فقد قتل هذا عمه حمزة رضي الله عنه في أحد (٣هـ)، وجاءت هند تفتش عن قلب حمزة حتى احتزته، ثم مضغته، مبالغةً في التشفي والانتقام ! ثم أسلمت هند وأسلم وحشي، فماذا كان من رسول الله ﷺ؟ لم يزد على أن استغفر لهند، وقبل إسلام وحشي وقال له: «**غيِّب عني وجهك، فلا أَرَيَنَّك**»[١].

هذا ما كان منه ﷺ مع قاتل عمه حمزة، ومع ماضغة قلبه[٢].

وهكذا كان خلقه ﷺ مع ألدّ الأعداء، المسامحة والإكرام والإحسان.

---

(١) ر: سيرة ابن هشام (٢/ ٧٢، ٩١)، الإصابة (٨/ ٣٤٦).

(٢) ر: من روائع حضارتنا ص (١٠٠).

obeikandl.com

obeikandl.com

المبحث الثاني

آداب النبي ﷺ مع أسرى الأعداء

- المطلب الأول: رحمة النبي ﷺ بأسرى الأعداء.
- المطلب الثاني: إكرام النبي ﷺ لأسرى الأعداء.

المطلب الأول

رحمة النبي ﷺ بأسرى الأعداء

والحديث عنه يتناول: اختيار الفداء على القتل، توجيه قتل بعض الأسرى، الغضب للعجلة بقتل الأسرى، النهي عن قتل الأسير صبرًا، النهي عن التفريق بين الجارية وولدها في الأسر، مراعاة مشاعر الأسرى.

أولاً: اختياره ﷺ الفداء على القتل

الأسير: هو الأخيذ من الأعداء، ويطلق على الذكر والأنثى، وجمعه: أسرى وأُسارى، مثل: سكرى وسكارى[1]، والأسر والسبي مترادفان[2].

وجملة من أسر من أهل الحرب على ثلاثة أضرب:

أحدها: النساء والصبيان، فلا يجوز قتلهم، ويصيرون رقيقًا للمسلمين بنفس

---

(١) ر: لسان العرب (٤/ ١٩)، المصباح المنير ص (١٣) مادة: (أسر).

(٢) ر: لسان العرب (١٤/ ٣٦٧) مادة: (سبي)، وسبق بيانه.

السّبي؛ لأن النبي ﷺ نهى عن قتلهم[١].

الثاني: الرجال من أهل الكتاب والمجوس، الذين يقرون بالجزية، فيخير الإمام فيهم بين أربعة أشياء: القتل، المنّ بغير عوض، المفاداة بهم، الاسترقاق.

الثالث: الرجال من عبدة الأوثان ونحوهم، كمشركي العرب، ممن لا يقرّ بالجزية، فالإمام مخيّر فيهم بين ثلاثة أشياء: القتل، المنّ، المفاداة، وفي جواز استرقاقهم خلاف[٢]. فهذه أحكام الأسير في الشريعة الإسلامية بشكل عام، والإمام له أن يختار ما هو أصلح للمسلمين، في كل زمان ومكان.

ولقد كان نبينا ﷺ يختار دومًا الأسهل والأيسر في الأمور كلها، ويكره الشدّة والعنت. تقول السيدة عائشة رضي الله عنها: «**ما خيّر رسول الله ﷺ بين أمرين إلا اختار أيسرهما، ما لم يكن إثمًا، فإن كان إثمًا كان أبعد الناس منه، وما انتقم رسول الله ﷺ لنفسه، إلا أن تنتهك حرمة الله تعالى، فينتقم لله بها**»[٣]. وكان إذا بعث أحدًا من أصحابه ﷺ في بعض أمورهم يقول لهم: «**بشّروا ولا تنفّروا ويسّروا ولا تعسّروا**»[٤]، وكان ﷺ يرفق ويحبّ الرفق في كل شيء، ويقول: «**من يحرم الرفق يحرم الخير كله**»[٥]. ولقد طبق ﷺ هذا المنهج في حروبه كلها، إذا خيّر بين الصلح والقتال، اختار الصلح، وإذا وقع الأسرى بيده اختار ﷺ الأيسر، الفداء على القتل، رحمةً بهم.

---

(١) ر: فقرة نهيه ﷺ عن قتل غير المقاتلة، الفصل الثالث من هذا البحث.

(٢) ر: المغني (١٠/ ٣٩٣).

(٣) البخاري (٣٥٦٠) كتاب المناقب، باب: صفة النبي ﷺ، مسلم (٢٣٢٧) كتاب الفضائل، باب: مباعدته ﷺ للآثام، واختياره من المباح أسهله، أبو داود (٤٧٨٥) كتاب الأدب، باب: في التجاوز في الأمر.

(٤) مسلم (١٧٣٢) كتاب الجهاد، باب: في الأمر بالتيسير وترك التنفير.

(٥) أبو داود (٤٨٠٩) كتاب الأدب، باب: في الرفق.

وهذا ما حصل في غزوة بدر (٢هـ)، فقد استشار أصحابه في أمر الأسرى: فكان من رأي عمر رضي الله عنه ومن معه قتلهم، على أنهم صناديد قريش وأئمتهم، وأما رأي أبي بكر رضي الله عنه، فكان أخذ الفدية، على أنهم بنو العم والعشيرة والإخوان، وعسى الله أن يهديهم فيكونوا عضدًا للمسلمين، وهذا ما مال إليه ﷺ [(١)]. وفي رواية أنس رضي الله عنه: أنه لما قال عمر: يا رسول الله، اضرب أعناقهم، أنه أعرض عنه، وعندما قال أبو بكر: يا رسول الله، نرى أن تعفو عنهم، وأن تقبل منهم الفداء، أنه ذهب عن وجهه ﷺ ما كان فيه من الغمّ[(٢)]؛ وذلك لأنه وافق على منهجه وهديه ﷺ، وهو الرفق والتيسير والرحمة.

قال ابن القيّم رحمه الله تعالى، مبيّنًا خير وبركة اختياره ﷺ: «... ولحصول الخير العظيم الذي حصل بإسلام أكثر أولئك الأسرى، ولخروج من أصلابهم من المسلمين، ولحصول القوّة التي حصلت بالفداء»[(٣)].

وقال الحافظ عبد الله سراج الدين رحمه الله تعالى: «إنه ﷺ جنح إلى رأي من قال بالفداء وهَوِيَهُ - أي: أحبه -؛ لما فيه من الرحمة والعطف واللين، بمقتضى المقام الذي أقامه تعالى فيه، وهو قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧]»[(٤)].

فكان اختياره ﷺ الفداء، عين الرحمة والصواب، أما لو اختار القتل؛ لحرم المسلمون من إسلام إخوانهم، كالعباس بن عبد المطلب، وعقيل بن أبي طالب، ونوفل بن الحارث بن عبد المطلب، وسهيل بن عمرو، وغيرهم.

---

(١) ر: البداية والنهاية (٣/ ٣٣٨ - ٣٤٢)، الرحيق المختوم ص (٣٤٨).

(٢) المسند (٣/ ٢٤٣) (١٣٥٨٠) ط: قرطبة.

(٣) ر: زاد المعاد (٣/ ١١١).

(٤) ر: محمد رسول الله ﷺ ص (٣٦٠).

ولقد كان هذا السلوك الأخلاقي العظيم مدعاةً لإيمان كثير من هؤلاء الأسرى، بل كان مدعاةً لتلاقي مناحي التفكير بين الأسرى وآسريهم، مما أتاح للدعوة أن تسري إلى القلوب من غير إكراه ولا تعنيت، فقد عاد هؤلاء الأسرى إلى أهليهم يتحدثون إليهم عن مكارم النبي ﷺ وأخلاقه، وعن مجتمعه وسماحته، وعن دعوته وما فيها من البرّ والتقوى، والإصلاح والخير، وإيثار الإخاء الإيماني على الإخاء الجاهلي[١].

ثانيًا: توجيه قتل بعض الأسرى

ومع ما كان عليه النبي ﷺ من الرأفة والرحمة التي شملت البشرية، إلا أنه كان متكافئ الأخلاق، لا يطغى خلق من أخلاقه العظيمة على آخر، بل كان كل خلق من أخلاقه متكاملاً في موضعه، عظيمًا في وضعه، لا يصلح في موضعه غيره. فلقد كان ﷺ يعامل كل أسير بما يستحق من المعاملة اللائقة به، فإن فداء الأسرى لا يعني صدور عفو عام عن الجرائم التي اقترفها الأسرى أيام حريّاتهم، فكان لا بد من تطبيق قواعد العدالة عليهم في الدنيا قبل الآخرة، جزاءً لهم، وردعًا لأمثالهم من المستهترين بالقيم، والمصادرين للحريّات، والمناصبين الدعاة إلى الله الحرب والعداء[٢]. ووفق هذا المعنى فقد أمر ﷺ بقتل بعض الأسرى من المشركين، ومن هؤلاء: أبو عَزّة الشاعر، وعقبة بن أبي معيط، والنضر بن الحارث. فلقد كان لكل واحد منهم موقفه الرديء مع النبي ﷺ والدعوة الإسلامية.

١- أما عقبة بن أبي معيط والنضر بن الحارث، فقد كانا من أشد الناس إيذاءً للنبي ﷺ والمسلمين، وحسبنا في ذلك إلقاء عقبة بن أبي معيط سلا الجزور

---

(١) ر أخلاق النبي ﷺ في القرآن والسنة (٣/ ١٣٩٧).

(٢) ر: المرجع السابق (٣/ ١٣٩٨).

- أو الشاة - على ظهر النبي ﷺ وهو ساجد في المسجد الحرام[١].

قال ابن كثير: « قلت: كان هذا الرجلان - أي عقبة بن أبي معيط والنضر بن الحارث - من شرّ عباد الله وأكثرهم كفرًا وعنادًا وبغيًا وحسدًا وهجاءً للإسلام وأهله»[٢]. فما كان من النبي ﷺ إلا أن أمر بقتلهما بعد أن قفل من غزوة بدر (٢هـ) في طريقه إلى المدينة، ولما أمر بقتل عقبة بن أبي معيط قال: أتقتلني يا محمد من بين قريش؟ قال ﷺ: **«نعم ! أتدرون ما صنع هذا بي؟ جاء وأنا ساجد خلف المقام، فوضع رجله على عنقي وغمزها، فما رفعها حتى ظننت أن عينيّ ستندران، وجاء مرة أخرى بسلا شاة فألقاها على رأسي وأنا ساجد، فجاءت فاطمة فغسلته عن رأسي»**[٣].

وعندما وصل خبر قتل النضر بن الحارث إلى مكة قالت أخته قتيلة أبياتًا من الشعر، رقّ لها النبي ﷺ - وهو ذو القلب الرحيم - فقال رغم ما فعله النضر من الإيذاء: **«لو بلغني هذا قبل قتله لمننت عليه»**[٤].

٢- وأما أبو عَزّة الشاعر: فقد أسر يوم بدر، ومنّ عليه النبي ﷺ، لكنه نقض العهد في أحد (٣هـ) فأسر ثانية، فقتله النبي ﷺ.

قال ابن إسحاق: « وأبو عزّة عمرو بن عبد الله بن عثمان بن وهيب بن حذافة ابن جمح، كان محتاجًا ذا بنات قال: يا رسول الله - يوم بدر (٢هـ)- لقد عرفت ما لي من مال، وإني لذو حاجة وذو عيال، فامنن عليّ، فمنّ عليه رسول الله ﷺ، وأخذ عليه أن لا يظاهر أحدًا، فقال أبو عزّة يمدح رسول الله ﷺ: [البحر الكامل].

---

(١) ر: سيرة ابن هشام (١/ ٤١٦).

(٢) ر: البداية والنهاية (٣/ ٣٤٩).

(٣) ر: المرجع السابق نفسه.

(٤) ر: المرجع السابق (٣/ ٣٥٠).

مَـنْ مُبْلِـغٍ عـني الرسـول محمَّـدًا بأنـك حـقٌّ والمليـك حميـد»[١]

ثم إنه نقض العهد، ولعب المشركون بعقله، فرجع إليهم، فلما كان يوم أحد، أسر أيضًا فقال: يا رسول الله، أقلني، فقال: «**لا والله، تمسح عارضيك بمكة تقول: خدعت محمدًا مرتين، إن المؤمن لا يلدغ من جحرٍ مرتين**» وقتله ﷺ[٢].

فإن مثل هذا المتلاعب لا يستحق الإحسان مرة ثانية؛ لأن المؤمن كيّس فطن، وإن في قتله غاية الحكمة والحزم، فهو يستحق هذه العقوبة؛ لأنه نال عفو رسول الله ﷺ شريطة ألا يساعد عليه عدوًا، ولكنه خان العهد، وانطلق يؤلّب الناس على قتال من عفا عنه. وحتى إن القانون الدولي المعاصر يحظر على الأسير أن يعود للقتال ثانية، وإذا عاد ثانية وأُسِرَ فإنه يقتل[٣].

ولعل السبب في قتل النبي ﷺ لبعض هؤلاء الأسرى، أنه أيقن أن لا فائدة من بقاء هؤلاء، فلو منّ عليهم لعادوا للإساءة مرة أخرى، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ [الأنعام: ٢٨].

والخلاصة أن رحمته ﷺ بالأسير تحيط به وتلازمه حتى آخر لحظة من حياته، فلو نطق بالشهادتين قبل القتل بلحظة لعصم دمه، وحرم قتله، ولو أن كل بني

---

(١) ر: البداية والنهاية (٣/ ٣٥٦)، وتتمة الأبيات:

وأنت امرؤ تدعو إلى الحق والهدى عليك من الله العظيم شهيد
وأنت امرؤ بوئت فينا مباءةً لها درجات سهلة وصعود
فإنك من حاربته لمحارب شقيّ ومن سالمته لسعيد
ولكن إذا ذكرت بدرًا وأهله تأوّب ما بي حسرة وقعود

(٢) ر: البداية والنهاية (٤/ ٦٣).

(٣) ر: في ظلال السيرة النبوية (غزوة أحد) ص (١٥١).

قريظة حينما قُدِّموا للقتل نطقوا بالشهادتين - ولو ظاهرًا بألسنتهم - لعصمت دماؤهم، وحرم قتلهم، ولكن ما هي إلا الشقاوة، التي تغلب على أهلها، والنفوس الخبيثة التي يوجهها الشيطان.

ثالثًا: غضبه ﷺ للعجلة في قتل الأسرى

لقد كان من أخلاقه ﷺ الحلم والأناة، والتريّث في الأمور، حتى مع الأعداء، فلا يقتل ما لم يتعيّن عليه القتل، ولا يحارب ما لم يجد أن لا سبيل إلى نشر دعوته إلا بالحرب.

وعندما تسرّع أحد قوّاده في قتل الأقوام المدعوة إلى الإسلام دونما تثبت من حقيقة إسلامهم، أنكر ذلك عليه ﷺ، وغضب أشد الغضب، وتدارك الخطأ بالدية.

فقد روى عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: بعث النبي ﷺ خالد بن الوليد إلى بني جذيمة (٨هـ) فدعاهم إلى الإسلام، فلم يحسنوا أن يقولوا: أسلمنا، فجعلوا يقولون: صبأنا صبأنا، فجعل خالد يقتل منهم ويأسر، ودفع إلى كل رجل منا أسيره، حتى إذا كان يوم أمر خالد أن يقتل كل رجل منا أسيره فقلت: والله لا أقتل أسيري، ولا يقتل رجل من أصحابي أسيره. حتى إذا قدمنا على النبي ﷺ فذكرناه، فرفع النبي ﷺ يديه فقال: «**اللهم إني أبرأ إليك مما صنع خالد، مرتين**»[1].

فالظاهر أنهم أرادوا الإسلام، لكنهم لم يحسنوا التعبير عن إسلامهم بنطق الشهادتين، ففهم خالد رضي الله عنه منهم شيئًا آخر، وهو العناد والإباء، أو الاستخفاف، فأمر بما أمر، وكانت هذه النتيجة.

---

(١) البخاري (٤٣٣٩) كتاب المغازي، باب: بعث النبي ﷺ خالد بن الوليد إلى جذيمة، ر: زاد المعاد (٣/ ٤١٥).

قال الخطابي: «يحتمل أن يكون خالد نقم عليهم العدول عن لفظ الإسلام؛ لأنه فهم عنهم أن ذلك وقع منهم على سبيل الأنفة، ولم ينقادوا إلى الدين، فقتلهم متأولاً قولهم»[١]. والنتيجة أن النبي ﷺ غضب من خالد رضي الله عنه، وأنكر عليه العجلة وترك التثبت من أمرهم، بأن يتحقق من قولهم: (صبأنا). وفي رواية: أن رسول الله ﷺ دعا عليًّا فقال: «**اخرج إلى هؤلاء القوم، واجعل أمر الجاهلية تحت قدميك**» فخرج حتى جاءهم ومعه مال، فلم يبق لهم أحد إلا وداه[٢]. وبذلك تدارك ﷺ الخطأ، فدفع دية القتلى إلى ذويهم.

ويبدو أن خالدًا رضي الله عنه اجتهد، فغلب على ظنّه عدولهم عن الإسلام، ولربما أخطأ في ذلك، فهو بشر، أما المعصوم، الذي أرسله ربه سبحانه رحمة للعالمين، فلم يرض بهذا التصرف، وأعلن براءته إلى الله تعالى منه؛ لأن روح الدعوة تقتضي التأني والتثبت، لا العجلة، والمسارعة إلى التقتيل.

رابعًا: نهيه ﷺ عن قتل الأسير صبرًا

الصّبر: هو نصب الإنسان للقتل، فهو مصبور[٣].

ويبدو أن الصّبر، ليس خاصًّا بقتل الإنسان، إنما هو عام في كل ذي روح، وعملية القتل صبرًا: هو أن يمسك من ذوات الروح شيئًا حيًّا، ثم يُرمى بشيء حتى يموت. وكل من قتل في غير معركة ولا حرب ولا خطأ، فإنه مقتول صبرًا[٤]. ويشبه اليوم بما يسمى بـ: القتل رميًا بالرصاص ونحوه.

---

(١) ر: فتح الباري (٧/ ٦٥٤).

(٢) ر: المرجع السابق (٧/ ٦٥٥).

(٣) ر: لسان العرب (٤/ ٤٣٨) مادة: (صبر).

(٤) ر: فيض القدير (٦/ ٣٣٦).

وهذه الصورة من القِتلة نهى عنها ﷺ؛ لما فيها من تعذيب ذي الروح.

فعن سعيد بن جبير قال: مرّ ابن عمر رضي الله عنهما بفتيان من قريش قد نصبوا طيرًا وهم يرمونه، وقد جعلوا لصاحب الطير كل خاطئة من نبلهم، فلما رأوا ابن عمر تفرّقوا، فقال ابن عمر: «**من فعل هذا؟ لعن الله من فعل هذا، إن رسول الله ﷺ لعن من اتخذ شيئًا فيه الروح غرضًا**»[(١)]. وفي رواية لابن عباس رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال: «**لا تتخذوا شيئًا فيه الروح غرضًا**»[(٢)].

قال النووي: «قال العلماء: صبر البهائم: أن تحبس وهي حيّة لتقتل بالرمي ونحوه، وهو معنى لا تتخذوا الحيوان الحيّ غرضًا ترمون إليه، كالغرض من الجلود وغيرها، وهذا النهي للتحريم... ولأنه تعذيب للحيوان»[(٣)].

فإذا كان هذا حاله ﷺ مع البهائم هكذا من الرحمة، والنهي عن التعذيب، فكيف بالإنسان المكرّم ! فلقد نهى ﷺ عن قتل الإنسان صبرًا، مهدور الدم أو غيره، مسلمًا كان أو كافرًا، أسيرًا أو حرًّا، لهذا المعنى. فعن ابن تِعْلي[(٤)] قال: غزونا مع عبد الرحمن بن خالد بن الوليد رضي الله عنه، فأتي بأربعة أعلاج[(٥)] من العدو، فأمر بهم فقتلوا صبرًا. وفي رواية: بالنبل صبرًا، فبلغ ذلك أبا أيوب الأنصاري رضي الله عنه فقال: سمعت رسول الله ﷺ ينهى عن قتل الصّبر،

---

(١) مسلم (١٩٥٨) كتاب الصيد والذبائح، باب: النهي عن صبر البهائم.

(٢) مسلم (١٩٥٧) كتاب الصيد والذبائح، باب: النهي عن صبر البهائم.

(٣) شرح مسلم (١٣/ ١١٤).

(٤) تِعْلي: بكسر التاء وسكون العين وكسر اللام، واسمه: عبيد الطائي الفلسطيني. أبو داود (٣/ ١٣٦).

(٥) أعلاج: جمع مفردها علج، وهو الرجل القوي الضخم. ر: لسان العرب (٢/ ٣٢٧) مادة: (علج).

فوالذي نفسي بيده، لو كانت دجاجة ما صَبْرتها، فبلغ ذلك عبد الرحمن بن خالد بن الوليد فأعتق أربع رقاب[١].

خامسًا: نهيه ﷺ عن التفريق بين الجارية وولدها

من رحمته ﷺ بالأسرى، أنه كان يمنع التفريق بين الوالدة وولدها، ويقول: «**من فرّق بين والدةٍ وولدها فرّق الله بينه وبين أحبته يوم القيامة**»[٢]. فكان يؤتى ﷺ بالسّبي، فيعطي أهل البيت جميعًا، كراهية أن يفرّق بينهم[٣].

وعن علي رضي الله عنه أنه فرّق بين جارية وولدها، فنهاه النبي ﷺ عن ذلك، وردّ البيع[٤].

قال الخطابي: « لم يختلف أهل العلم أن التفريق بين الولد الصغير وبين والدته غير جائز، إلا أنهم اختلفوا في الحد بين الصغير الذي لا يجوز معه التفريق، وبين الكبير الذي يجوز معه»[٥].

وقال ابن قدامة: « أجمع أهل العلم على أن التفريق بين الأم وولدها الطفل غير جائز»[٦].

والخلاصة: أن هذا النهي منه ﷺ عن التفريق بين الوالدة وولدها، إنما هو عين الرحمة بالأم، لفَرَط شفقتها ورحمتها بولدها، وبالولد، الذي تتكدر حياته كلها

---

(١) أبو داود (٢٦٨٧) كتاب الجهاد، باب: في قتل الأسير بالنبل.

(٢) الترمذي (١٥٦٦) كتاب السير، باب: في كراهية التفريق بين السّبي، وقال عنه: حسن غريب.

(٣) ر: زاد المعاد (٣/ ١١٤).

(٤) أبو داود (٢٦٩٦) كتاب الجهاد، باب: في التفريق بين السّبي.

(٥) ر: معالم السنن (٣/ ١٤٤ - ١٤٥).

(٦) ر: المغني (١٠/ ٤٥٩).

بفراق أمه، ولهذا كان حرصه ﷺ على تجميع السّبي، فيعطي أهل البيت جميعًا لواحد، خشية التفريق.

سادسًا: رحمته ﷺ بمشاعر الأسرى

إن مشاعر الأسير محترمة عند رسول الله ﷺ، وإنسانية الأسير مراعاة في شريعته، فليس هو حيوان يوثّق، ويُعطى من الطعام والشراب بقدر ما يبقي على حياته، وتهدر كرامته، وينتظر مصيره، إنما هو كائن معتبر مكرم، أسلم أم لم يسلم، وهذه سنّة النبي ﷺ في حروبه مع أعدائه؛ ليكون ذلك دستورًا للقادة المسلمين من بعده.

ففي غزوة خيبر (٧هـ) صالح ﷺ أهلها على كل مال لهم، وأرض، على الصفراء والبيضاء، والكراع والحلقة، إلا ثوبًا على ظهر إنسان وقال لهم: «**وبرئت منكم ذمة الله، وذمة رسوله إن كتمتموني شيئًا**» وتم الصلح على ذلك. وعندما غيّبوا شيئًا من مال حيي بن أخطب، برئت منهم ذمة الله ورسوله، فقتل ﷺ من نكث، وهما ابنا أبي الحقيق[(١)]، وسبى الذراري، وكان من جملتهم صفية بنت حيي، وكانت زوجة تحت كنانة بن أبي الحقيق الذي قتل، وكانت عروسًا حديثة عهد بالدخول، وبعد أن اصطفاها ﷺ لنفسه، أمر بلالاً أن يذهب بها إلى رحله، فمرّ بها بلال وسط القتلى، فكره ذلك رسول الله ﷺ وقال: «**أذهبت الرحمة منك يا بلال!**»[(٢)].

فانظر كيف راعى ﷺ شعور هذه الأسيرة المنكوبة - التي لم تسلم بعد - وأنكر على بلال إمرارها بين القتلى، وهم أهلوها وأقاربها، بل وزوجها الذي قُتل

---

(١) ر: فقرة وفاء النبي ﷺ لأعدائه، من الفصل الثاني.

(٢) ر: سيرة ابن هشام (٢/ ٣٣٦)، زاد المعاد (٣/ ٣٢٦ - ٣٢٧).

لتوّه ! ثم عرض عليها ﷺ الإسلام فأسلمت، ثم تزوجها، فكانت من أمهات المؤمنين.

المطلب الثاني

إكرام النبي ﷺ لأسرى الأعداء

الكريم: هو كثير الخير، والجواد المعطي، وهو الجامع لأنواع الخير والشرف والفضائل، وقيل: اسم جامع لكل ما يحمد، وأكرم الرجل وكرّمه: أعظمه ونزّهه[(١)]. وهذا المعنى متحقق أيما تحقق بالنبيِّ ﷺ وزيادة، فهو الكريم الذي لا يرد سائلاً. قال جابر بن عبد الله رضي الله عنهما: **«ما سئل رسول الله ﷺ شيئًا قطُّ فقال: لا»**[(٢)].

أما بالنسبة إلى أسرى الأعداء، فهو ﷺ: المكرم لهم بالمنّ، المحسن لمعاملتهم، المكرم للأسيرات بالزواج منهنّ.

أولاً: منّه ﷺ على الأسرى

المنّ: لغة: الإحسان والإنعام، والاسم منه: منّة[(٣)].

والمنّ على الأسير: إطلاق سراحه، من غير فداء، وهو من الإنعام، وسمي ذلك منًّا؛ لأنه نعمة كبرى تسدى إليه، توازي نعمة الحياة، وأي نعمة أكبر من نعمة تعيد له كرامته وحريته، بل وحياته بعد أن كان على شفا فقدانها[(٤)].

---

(١) ر: لسان العرب (١٢/ ٥١٢) مادة: (كرم).

(٢) مسلم (٢٣١١) كتاب الفضائل، باب: ما سئل رسول الله ﷺ شيئًا قط فقال:لا، وكثرة عطائه.

(٣) ر: لسان العرب (١٣/ ٤١٣).

(٤) ر: أخلاق النبي ﷺ في القرآن والسنة (٣/ ١٣٩٣).

فلقد منّ النبي ﷺ على أسرى هوازن عندما جاؤوا مسلمين، وهذا ما سبق ذكره[١]. ولكن لم يقتصر منُّه ﷺ على من أسلم، بل منّ على الكافرين، وما يؤكد ذلك ما يلي:

١- منه ﷺ على ثمامة بن أثال: فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: بعث رسول الله ﷺ خيلاً قبل نجد (٥هـ) فجاءت برجل من بني حنيفة يقال له: ثمامة بن أثال، فربطوه بسارية من سواري المسجد، فخرج إليه النبي ﷺ فقال: «**ما عندك يا ثمامة؟**» فقال: عندي خير، يا محمد إن تقتلني تقتل ذا دم، وإن تنعم، تنعم على شاكر، وإن كنت تريد المال فسل منه ما شئت. فتركه حتى كان الغد، ثم قال له: «**ما عندك يا ثمامة؟**» فقال: ما قلت لك: إن تنعم تنعم على شاكر، فتركه، حتى كان بعد الغد فقال: «**ما عندك يا ثمامة؟**» فقال: عندي ما قلت لك. فقال: «**أطلقوا ثمامة**». فانطلق إلى نخل قريب من المسجد فاغتسل، ثم دخل المسجد فقال: أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمدًا رسول الله[٢].

---

(١) ر: فقرة: استئذانه ﷺ أصحابه بالغنائم والمنّ على الأسرى في الفصل الأول من هذا البحث.

(٢) البخاري (٤٣٧٢) كتاب المغازي، باب: وفد بني حنيفة، وحديث ثمامة بن أثال وتمامه: «... يا محمد ما كان على الأرض وجه أبغض إلي من وجهك، فقد أصبح وجهك أحب الوجوه إلي، والله ما كان من دين أبغض إلي من دينك، فأصبح دينك أحبّ الدين إلي، والله ما كان من بلد أبغض إليّ من بلدك، فأصبح بلدك أحب البلاد إليّ، وإن خيلك أخذتني، وأنا أريد العمرة، فماذا ترى؟ فبشره رسول الله ﷺ وأمره أن يعتمر، فلما قدم مكة قال له قائل: صبوت؟ قال: لا والله، ولكن أسلمت مع محمد رسول الله ﷺ، والله لا يأتيكم من اليمامة حبة حنطة حتى يأذن فيها النبي ﷺ». ر: زاد المعاد (٣/ ٢٧٧).

٢- منّه ﷺ على أهل التنعيم (٦هـ): فقد روى أنس رضي الله عنه أن ثمانين رجلاً من أهل مكة هبطوا على النبي ﷺ من جبال التنعيم عند صلاة الفجر ليقتلوهم، فأخذهم رسول الله ﷺ سلمًا[١]، فأعتقهم رسول الله ﷺ، فأنزل الله عز وجل: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ﴾[٢].

٣- منّه ﷺ على أسرى تميم، وذلك عندما سبت سرية عيينة بن حصن الفزاري اثنين وستين أسيرًا من بني تميم (٩هـ): أحد عشر رجلاً، وإحدى وعشرين امرأة، وثلاثين صبيًا، وساقوهم إلى المدينة، وأُنزلوا في دار رملة بنت الحارث، فقدم في طلبهم زعماء تميم: الأقرع بن حابس، وعطارد بن الحاجب، والزبرقان بن بدر، وغيرهم، فلما رأتهم الذراري بكوا، فأسرعوا إلى باب النبي ﷺ وطلبوا منه المنّ عليهم، فأعطاهم ﷺ، وكان ذلك سبب إسلامهم وصلاح حالهم[٣].

والخلاصة: أن النبي ﷺ أكرم هؤلاء الأسرى ومنّ عليهم، ترغيبًا لهم في الإسلام، وكان ذلك، فقد أسلموا، وصلح حالهم.

ولقد كان ﷺ يفعل ذلك - من المنّ على الأسرى - تبعًا لما يراه من مصلحة ظاهرة للمسلمين، أو لأجل وفاء كريم، أو تحقيقًا لرغبة طالب شفاعة، أو لغيرها من المصالح، وتحقيقًا لمعاني الخلق الكريم[٤].

---

(١) أي: أسرناهم، دون قتال.

(٢) مسلم (١٨٠٨) كتاب الجهاد والسير، باب: قوله تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ﴾، أبو داود (٢٦٨٨) كتاب الجهاد، باب: في المن على الأسير بغير فداء، الجامع لأحكام القرآن (١٩/ ٣٢٣)، سورة الفتح.

(٣) ر: زاد المعاد (٣/ ٥١٠)، فقه السيرة (الجميلي) ص (٤١٣).

(٤) ر: أخلاق النبي ﷺ في القرآن والسنة (٣/ ١٣٩٥).

ثانيًا: حسن معاملته ﷺ للأسرى

إن من عادة غالبية جيوش العلم - قديمًا وحديثًا - الإساءة إلى الأسرى، على أنهم المحاربون الذين قاتلوهم وقتلوا منهم، فترى نفوسهم تتأجج عليهم، وما يعطونهم من الطعام والشراب إلا بقدر سدّ الرمق، وما يبقيهم على الحياة فقط، وهناك من يعذبهم ويسيء إليهم، إلى أن تتم مبادلتهم، أو مفاداتهم.

أما الأسرى لدى النبي ﷺ فكانت لهم معاملة خاصة، تتناسب وروح الدعوة الإسلامية، وأخلاق النبي ﷺ، المرسل رحمة للعالمين، فقد كان ﷺ يوصي أصحابه بالأسرى، وكان يلاطفهم، ويكسوهم ويحسن إليهم.

١ - وصيته لأصحابه بالإحسان إلى الأسرى: فقد روى ابن إسحاق أن رسول الله ﷺ حين أقبل بالأسارى (يوم بدر ٢هـ) فرّقهم بين أصحابه وقال: «**استوصوا بهم خيرًا**»، ونقل عن أبي عزيز بن عمير - أخي مصعب بن عمير رضي الله عنه - قوله: فكنت في رهطٍ من الأنصار حين أقبلوا بي من بدر، فكانوا إذا قدموا غداءهم وعشاءهم خصّوني بالخبز، وأكلوا التمر؛ لوصية رسول الله ﷺ إياهم بنا، ما تقع في يد رجل منهم كسرة خبز إلا نفحني بها، فأستحي فأردّها، فيردّها عليّ ما يمسّها، وكان الخبز آنذاك عزيزًا[1].

فانظر إلى هذه الوصية منه ﷺ: «**استوصوا بهم خيرًا**»، وانظر إلى أثرها في نفوس أصحابه، كيف آثروا الأسرى على أنفسهم، وأكرموهم بما يستطيعون، وانظر إلى أثر ذلك في نفوس الأسرى، عندما يتحدثون عن إكرام المسلمين لهم!.

٢ - ملاطفته ﷺ للأسير: فقد روى عمران بن حصين رضي الله عنه قال: كانت ثقيف حلفاء بني عقيل، فأسرت ثقيف رجلين من أصحاب رسول الله ﷺ،

---

(١) ر: البداية والنهاية (٣/ ٣٥٠)، الرحيق المختوم ص (٢٤٧).

وأسر أصحاب رسول الله ﷺ رجلاً من بني عقيل، وأصابوا معه العضباء، فأتى عليه رسول الله ﷺ وهو في الوثاق، قال: يا محمد، فأتاه فقال: «**ما شأنك؟**» فقال: بم أخذتني، وبم أخذت سابقة الحاج؟[١] فقال: «**إعظامًا لذلك، أخذتك بجريرة حلفائك ثقيف**» ثم انصرف عنه، فناداه فقال: يا محمد يا محمد، وكان رسول الله ﷺ رحيمًا رقيقًا، فرجع إليه، فقال: «**ما شأنك؟**» قال: إني مسلم، قال: «**لو قلتها وأنت تملك أمرك أفلحت كل الفلاح**» ثم انصرف عنه، فناداه: يا محمد يا محمد، فأتاه، فقال: «**ما شأنك؟**» قال: إني جائع فأطعمني، وظمآن فاسقني، قال: «**هذه حاجتك**» ففدى بالرجلين...[٢].

قال النووي في شرح قوله ﷺ: «**لو قلتها وأنت تملك أمرك أفلحت كل الفلاح**»: «معناه: لو قلت كلمة الإسلام قبل الأسر، حين كنت مالك أمرك، أفلحت كل الفلاح؛ لأنه لا يجوز أسرك لو أسلمت قبل الأسر، فكنت فزت بالإسلام والسلامة من الأسر ومن اغتنام مالك، وأما إذا أسلمت بعد الأسر، فيسقط الخيار في قتلك، ويبقى الخيار بين: الاسترقاق والمنّ والفداء»[٣].

فانظر إلى أخلاقه ﷺ وحسن ملاطفته لهذا الأسير، فتراه يحاوره في مشروعية أسره، وأنه مأخوذ بظلم حلفائه، وانظر كيف يجيبه المرة تلو المرة، وهو يناديه باسمه: يا محمد ! وكأن النبي ﷺ فارغ من شؤون المسلمين كلها، وليس عنده اهتمام إلا بهذا الأسير، ثم يطعمه ويسقيه، ويحسن رعايته، مما يجعل الأسير يشعر بطمأنينة البال، وهدوء النفس واستقرارها، وعدالة أسره[٤].

---

(١) أي: الناقة السريعة.

(٢) مسلم (١٦٤١) كتاب النذر، باب: لا وفاء لنذر في معصية الله، ولا فيما لا يملك العبد.

(٣) ر: شرح مسلم (١١/ ١٠٩).

(٤) ر: أخلاق النبي ﷺ في القرآن والسنة (٣/ ١٣٨٨).

٣- كساؤه ﷺ للأسرى وإكرامهم: فلم يقف إحسان النبي ﷺ إلى الأسرى عند حدّ الإطعام والرفق في المعاملة، بل تعداه إلى الكساء والإكرام، والروايتان التاليتان تؤكدان ذلك:

- فقد روى جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: لما كان يوم بدر (٢هـ) أتي بالعباس، ولم يكن عليه ثوب، فنظر النبي ﷺ له قميصًا، فوجدوا قميص عبد الله ابن أبي يُقْدَرُ عليه، فكساه النبي ﷺ إياه، فلذلك نزع النبي ﷺ قميصه الذي ألبسه[١].

قال البخاري: قال ابن عيينة: كانت له عند النبي ﷺ يد، فأحبّ أن يكافئه.

- وروى ابن إسحاق قال: أصابت خيل رسول الله ﷺ ابنة حاتم في سبايا طيّ، فقدمت بها على رسول الله ﷺ، فجعلت في حظيرة بباب المسجد، فمرّ بها رسول الله ﷺ فقامت إليه - وكانت امرأة جزلة[٢] - فقالت: يا رسول الله، هلك الوالد، وغاب الوافد، فقال: «**ومن وافدك؟**» قالت: عديّ بن حاتم، قال: «**الفارّ من الله ورسوله**» ومضى حتى مرّ ثلاثًا، قالت: فأشار إليّ رجل من خلفه: أن قومي فكلميه، قالت: يا رسول الله، هلك الوالد، وغاب الوافد، فامنن عليّ، منّ الله عليك. قال: «**قد فعلت، فلا تعجلي حتى تجدي ثقةً يبلغك بلادك، ثم آذنيني**» فسألتُ عن الرجل الذي أشار إليّ فقيل: علي بن أبي طالب. وقدِمَ ركبٌ من بلي[٣]، فأتيت رسول الله ﷺ فقلت: قدم رهط من قومي، قالت: وكساني رسول الله ﷺ وحملني وأعطاني نفقة، فخرجت حتى قدمت على أخي، فقال: ما ترين في هذا

---

(١) البخاري (٣٠٠٨) كتاب الجهاد والسير، باب: الكسوة للأسارى.

(٢) **الجزلة من النساء**: عظيمة العجيزة، وذات أرداف. ر: لسان العرب (١١/ ١٠٩) مادة: (جزل).

(٣) اسم قبيلة، ربما كانت قريبة من بلاد طيّ. ر: لسان العرب (١٤/ ٨٨).

الرجل؟ فقلت: أرى أن نلحق به[١].

فانظر إلى عناية النبي ﷺ بهذه المرأة الأسيرة: منّ عليها، وكساها، وأعطاها نفقة توصلها إلى أهلها، وحرص على بلوغها قومها مع رفقة أمينة!.

فهذا الإحسان والإكرام من النبي ﷺ إلى الأسرى، لم يكن خصوصية لهؤلاء، ولم تكن وصيته لأصحابه بالإحسان إليهم خصوصية لأولئك المؤمنين، إنما هي وصية عامة وشاملة، نابعة من مشكاة النبوة، لتكون منهجًا للقادة والمرؤوسين على مر الأيام، وذلك لأن الأسير تحيط به ظروف صعبة وغامضة؛ لأنه غالب ما يكون أسرهم، ولا تزال نيران الحرب مستعرة، وربما كان بعضهم قد قتل الكثير من جيش المسلمين، فيكون القتل في حقه متوقعًا، لشدة الغيظ، وانبعاث الرغبة في الانتقام[٢]. ولهذا كله شرع النبي ﷺ هذه القواعد والآداب السامية في معاملة الأسرى، احترامًا لإنسانيتهم، وتخفيفًا عنهم، وإحياءً لنفوسهم بالأمل، وقبل ذلك وبعده، تأليفًا لقلوبهم، وإعطاءهم الصورة الصحيحة عن الأخلاق الإسلامية.

فقارن بين هذه المعاملة الحسنة للأسرى، وبين معاملة إسرائيل للأسرى المصريين في حرب السويس (١٩٥٦م) عندما قتلت (٣٥) أسيرًا[٣]! وما فعلته بأسرى العرب عام (١٩٦٧م)، فقد أساءت معاملتهم وعذبتهم، وقتلت بعضهم، مخالفةً بذلك أبسط المبادئ الخلقية والإنسانية[٤]. كما ارتكبت جرائم عدة مع

---

(١) ر: الإصابة (٨/ ١٠٨).

(٢) ر: أخلاق النبي ﷺ في القرآن والسنة (٣/ ١٣٩٢).

(٣) ر: آداب الحرب ص (٣٠٦).

(٤) لمعرفة الجرائم والمخالفات التي ارتكبتها إسرائيل ضد الأسرى العرب، راجع التقارير والأبحاث المقدمة إلى مؤتمر: حقوق الإنسان، الذي عقدته جامعة الدول العربية في بيروت سنة (١٩٦٨م).

الأسرى في وقت آخر، مخالفةً بذلك الشرائع السماوية، والقوانين الدولية[١]، وميثاق الأمم المتحدة، والإعلان العالمي لحقوق الإنسان[٢].

ثالثًا: إكرامه ﷺ للأسيرات بالزواج منهنّ

فلقد كان ﷺ يكرم الأسيرات الشريفات بالزواج منهنّ، تكريمًا لهن ولأهليهنّ، وإنزالاً لهنّ منازلهنّ، ومعرفةً لقدرهنّ، إذ لا يليق بهن أن يبقين أسيرات رقيقات ضعيفات، فكان ﷺ يعتقهن ويتزوجهن. وذلك كزواجه من جويرية بنت الحارث، وصفية بنت حيي.

١- أما زواجه ﷺ من جويرية: فكان بعد غزوة بني المصطلق (٥هـ) عندما وقعت في السّبي، وأبوها الحارث سيد قومه، فوقعت في سهم ثابت بن قيس، فكاتبها، فأدّى عنها رسول الله ﷺ وتزوجها. فقد روى ابن إسحاق عن عائشة رضي الله عنها قالت: دخلت جويرية على النبي ﷺ فقالت: يا رسول الله، أنا جويرية بنت الحارث بن أبي ضرار، سيد قومه، وقد أصابني من البلاء ما لم يخف عليك، فوقعت في السهم لثابت بن قيس بن شماس، فكاتبته على نفسي، فجئتك أستعينك على كتابتي، فقال رسول الله ﷺ: «**فهل لك خير من ذلك؟ قالت: وما هو يا رسول الله؟ قال: أقضي عنك كتابتك وأتزوجك**» قالت: نعم يا رسول الله، قد فعلت، وخرج الخبر إلى الناس، أن رسول الله ﷺ تزوج جويرية بنت الحارث، فقال الناس: أصهار رسول الله ﷺ، فأرسلوا ما بأيديهم ! قالت: فلقد أعتق بتزويجه

---

(١) تنص المادة (١٣) من اتفاقيات جنيف على: وجوب معاملة الأسرى معاملة إنسانية في جميع الأوقات، وأي عمل أو سهو غير مشروع يصدر من الدولة الحاجزة ويتسبب عنه موت أسير في حراستها، أو تعريض صحته للخطر، يعتبر محظورًا، وإخلالاً بهذه الاتفاقية.

(٢) ر: الجهاد في الإسلام ص (٢٠٣).

إياها مائة أهل بيت من بني المصطلق، فما أعلم امرأة أعظم بركة على قومها منها[١].

فانظر إلى رحمة الله تعالى بهذه المرأة وبقومها، فعندما وقعت بالأسر، شعرت أن مصيبةً عظمى قد أحاطت بها من كل جانب، فأخذت تبحث يمنةً ويسرةً وتستعين للتخلص من الرقّ، وهي بنت سيد القوم، يعزّ عليها أن تحيا رقيقةً مملوكة، وإذ بإكرام رسول الله ﷺ لها، فأنقذها من مواقع الذلّ، ونقلها إلى عزّ أكبر وأعظم، بأن كانت إحدى أمهات المؤمنين ! وأتم الله فضله عليها بأن أكرم قومها على أيدي صفوة الخلق بعد رسول الله ﷺ، وهم أصحابه الذين عرفوا قدره العظيم، فأطلقوا جميع أسرى بني المصطلق قائلين: أصهار رسول الله ﷺ.

نعم، لقد جاءت السيدة جويرية بهذا الأسر نعمة كبرى في ثوب مصيبة !.

٢- وأما زواجه ﷺ من صفية بنت حيي: فقد كان في غزوة خيبر (٧هـ) عندما وقعت في السّبي، وهي بنت سيد القوم، وكانت لا تزال عروسًا، بزواجها من كنانة بن أبي الحقيق، فعرض عليها رسول الله ﷺ الإسلام فأسلمت، فاصطفاها لنفسه ﷺ وأعتقها، وجعل عتقها صداقها، وبنى بها في الطريق ﷺ وأولم لها.

ولقد شك الصحابة رضوان الله عليهم: هل سيتخذها سريّة - أي مملوكة موطوءة - أم زوجة؟ فقالوا: انظروا إن حجبها فهي إحدى نسائه، وإلا فهي مما ملكت يمينه، فلما حجبها رسول الله ﷺ علموا أنها إحدى نسائه[٢]، فكان ذلك تكريمًا لها.

---

(١) ر: سيرة ابن هشام (٢/ ٢٩٥)، زاد المعاد (٣/ ٢٥٨)، فقه السيرة (الجميلي) ص (٢٢٣).

(٢) ر: سيرة ابن هشام (٢/ ٣٣٦)، زاد المعاد (٣/ ٣٢٧)، فقه السيرة (الجميلي) ص (٢٧٣ - ٢٧٤).

obeikandl.com

فانظر إلى إكرامه ﷺ للأسيرات الشريفات، كيف عرف قدرهن، وأنزلهنّ منازلهنّ، وهذه طبيعة النفوس الكريمة، تعرف قدر الآخرين. أما النفوس اللئيمة فهي التي تعمل جاهدةً لتحطّ من قدر الأشراف والكرام، فلو أن قائدًا غير النبي ﷺ لترك هؤلاء النسوة الشريفات أسيرات رقيقات مستضعفات ذليلات، وذلك احتقارًا لهنّ وإذلالاً لقومهن. ولكن ما هي إلا أخلاق النبوة.

obeikandl.com

obeikandl.com

المبحث الثالث

آداب النبي ﷺ عند النصر

- المطلب الأول: تواضع النبي ﷺ عند النصر.
- المطلب الثاني: وفاء النبي ﷺ لعدوه بعد النصر.
- المطلب الثالث: إرساء النبي ﷺ قواعد العدالة والمساواة بعد النصر.

المطلب الأول

تواضع النبي ﷺ عند النصر

إن من عادة القادة العسكريين عندما يدخلون بلدًا ما منتصرين، يدخلونها رافعي الرؤوس، تنتابهم نشوة النصر، لا يبصرون طريقهم من الخيلاء والشعور بالعظمة، وربما أجرى الشيطان على ألسنتهم عبارات طائشة، تتجاوز حدود الكائن البشري الضعيف أمام الله تعالى، وتعزف عليهم الموسيقى والأناشيد، وتتناقل وسائل الإعلام المختلفة هذا الحديث بشيء من المبالغة والتفخيم، حتى يشعر أحدهم بأن لا قوة تطوله في الأرض ! وينسى أنه عبد لله ضعيف!.

يقول السباعي رحمه الله: «ونشوة النصر تسكر الفاتحين، فتوقعهم في أبشع أنواع التشفي والانتقام»[1].

---

(١) ر: من روائع حضارتنا ص (٦٥).

هذه طبيعة النفس البشرية - عمومًا - عند النصر، من الكبر والتعالي.

أما نبينا محمد ﷺ عندما أكرمه ربه سبحانه بالنصر، وأي نصر، فتح مكة، الذي سماه المولى عز وجل نصرًا بقوله: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ [النصر: ١] دخل مكة ﷺ على ناقته، يقرأ سورة الفتح يرجّع[(١)]، قال عبد الله بن مغفل - راوي الحديث - رضي الله عنه: «**لولا أن يجتمع الناس حولي لرجّعت كما رجّع**»[(٢)].

ولقد روى ابن إسحاق أن رسول الله ﷺ ليضع رأسه تواضعًا لله، حين رأى ما أكرمه الله به من الفتح، حتى أنّ عُثنونه[(٣)] يكاد يمسّ واسطة الرحل ! ولقد كلمه رجل إبّان ذلك فأخذته الرِّعدة - من هيبة الموقف - فقال ﷺ: «**هوّن عليك، فإنما أنا ابن امرأة من قريش تأكل القديد**»[(٤)].

فإن هذا النصر كله، والفتح العظيم لم يشغله ﷺ عن ربه، فقد كان مستغرقًا في حالة شهود مع الله تعالى أثناء دخوله مكة، فما كان لنشوة النصر والظفر إلى نفسه من سبيل، ولم يكن شيء من التعاظم أو التجبّر ليستولي على شيء من مشاعره، إنما هو الانسجام التام مع شهود الله تعالى، والشكر على نصره وتأييده[(٥)]، ممتثلاً أمر ربه سبحانه الذي أكرمه بالنصر، وعلمه كيف يتعامل معه قبل ذلك، حينما نزل عليه قوله تعالى: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ۝١ وَرَأَيْتَ

---

(١) الترجيع: ترديد القارئ الحرف في الحلق. ر: فتح الباري (٧/ ٦٠٧).

(٢) البخاري (٤٢٨١) كتاب المغازي، باب: أين ركز النبي ﷺ الراية يوم الفتح.

(٣) **العُثنون من اللحية**: ما نبت على الذّقن وتحته سفلاً. ر: لسان العرب (١٣/ ٢٧٦) مادة: (عثن).

(٤) ر: البداية والنهاية (٤/ ٣٣٩). **والقديد**: اللحم المجفف على الشمس.

(٥) ر: فقه السيرة (البوطي) ص (٢٨٨).

﴿ٱلنَّاسَ يَدۡخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفۡوَاجٗا ۝٢ فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا﴾ [النصر].

فقارن بين حاله هذا ﷺ حين النصر، من امتثاله لأمر ربه سبحانه، وحال بني إسرائيل عندما أمرهم المولى عز وجل بدخول القرية[١] سجدًا وأن يقولوا حطّة، أي: مغفرة، فدخلوها مخالفين معاندين. قال ﷺ: «**قيل لبني إسرائيل ادخلوا الباب سجدًا، وقولوا حطة، فبدّلوا، فدخلوا يزحفون على أستاههم[٢] فبدلوا وقالوا: حبّة في شعرة**»[٣].

قال ابن حجر: «والحاصل أنهم خالفوا ما أمروا به من الفعل والقول، فإنهم أمروا بالسجود عند انتهائهم شكرًا لله تعالى، وبقولهم حطّة، فبدلوا السجود بالزحف وقالوا: حنطة بدل حطّة، أو قالوا: حطة وزادوا فيها حبة في شعرة»[٤].

فكم هو الفارق كبير بين دخوله ﷺ مكة متواضعًا ذاكرًا ربه سبحانه، شاكرًا لأنعمه، ودخول بني إسرائيل معاندين مخالفين !.

المطلب الثاني

وفاء النبي ﷺ لعدوّه بعد النصر

فما كان النصر لينسي النبي ﷺ مكارم الأخلاق، التي جاء لإتمامها، وما كان ليغفل ﷺ عمن أسدوا إليه معروفًا[٥]، عظيمًا كان أم حقيرًا، وهو القائل: «**ومن**

---

(١) قال الجمهور: هي بيت المقدس، وقيل: أريحا. ر: الجامع لأحكام القرآن (٢/ ١٢٢)، سورة البقرة.

(٢) أي: على مقاعدهم.

(٣) البخاري (٤٤٧٩) كتاب التفسير، باب: وإذ قلنا ادخلوا هذه القرية...

(٤) ر: فتح الباري (٨/ ١٥٤).

(٥) ر: فقرة: شفقته ﷺ على من أحرج على القتال، ووصيته بأبي البختري بن هشام.

صنع إليكم معروفًا فكافئوه، فإن لم تجدوا ما تكافئونه فادعوا له حتى تروا أنكم قد كافأتموه»[(١)].

وعندما وفد عليه ﷺ وفدُ النجاشي قام يخدمهم، فقال له أصحابه: نحن نكفيك - أي: نكفيك القيام بضيافتهم وإكرامهم - فقال ﷺ: «**إنهم كانوا لأصحابنا مكرمين، وأنا أحب أن أكافئهم**»[(٢)].

فلقد كان ﷺ يحب أن يكافئ كل صانع معروف، من الأصدقاء أو من الأعداء، من الأموات أو من الأحياء.

أولاً: وفاؤه ﷺ للأموات من الأعداء

فقد روى جبير بن مطعم رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال في أسارى بدر: «**لو كان المطعم ابن عدي**[(٣)] **حيًّا ثم كلمني في هؤلاء النتنى لتركتهم له**» وفي رواية: «**لأطلقتهم له**»[(٤)]؛ وذلك لأن المطعم بن عدي أجاره ﷺ حين رجع من الطائف، بعد أن اعتذر عن ذلك غيره، وقد نزل عنده ﷺ وبات تلك الليلة، فلما أصبح

---

(١) أبو داود (١٦٧٢) كتاب الزكاة، باب: عطية من سأل بالله. وبداية الحديث: «من استعاذ بالله فأعيذوه، ومن سأل بالله فأعطوه، ومن دعاكم فأجيبوه، ومن صنع إليكم معروفًا فكافئوه...».

(٢) البيهقي (٢/ ٣٠٧) في دلائل النبوة.

(٣) هو: المطعم بن عدي بن نوفل بن عبد مناف، رئيس بني نوفل في الجاهلية، وقائدهم في حرب الفجار، وهو من النفر الذين مزّقوا صحيفة المقاطعة، التي كتبتها قريش على المسلمين وبني هاشم، مات قبيل وقعة بدر، وله بضع وتسعون سنة. ر: الأعلام (٧/ ٢٥٢).

(٤) البخاري (٣١٣٩) كتاب فرض الخمس، باب: ما منّ النبي ﷺ على الأسارى من غير أن يخمّس، أبو داود (٢٦٨٩) كتاب الجهاد، باب: في المنّ على الأسرى بغير فداء.

خرج وبنوه ستة أو سبعة متقلدي السيوف جميعًا، فدخلوا المسجد، وقال لرسول الله ﷺ: طُفْ، واحتبوا بحمائل سيوفهم في المطاف، فأقبل أبو سفيان إلى مطعم فقال: أمجير أو تابع؟ قال: بل مجير، قال: إذًا لا تُخفر، فجلس معه حتى قضى رسول الله طوافه، فلما انصرف انصرفوا معه[1].

فلم ينسَ النبي ﷺ هذا الموقف النبيل، والصنيع الجميل من المطعم بن عدي، فعبّر عن هذا التقدير بقوله: «**لو كان المطعم بن عدي حيًّا، ثم كلمني في هؤلاء النتنى لتركتهم له**» وهم سبعون أسيرًا. لا شك أنه وفاء ما بعده وفاء، ومكافأة على المعروف صادقة.

ثانيًا: وفاؤه ﷺ للأحياء

١- فما كان ﷺ لينسى المعروف ولو كان يسيرًا. ففي سنة (٦هـ) أرسل النبي ﷺ زيد بن حارثة في سرية، فكان بالجموم[2]، فأصاب امرأةً من مزينة يقال لها حليمة، فدلّتهم على محِلة من محالّ بني سليم، فأصابوا نعمًا وشاءً وأسرى، وكان في الأسرى زوج حليمة ! فلما قفل زيد بن حارثة بما أصاب، وهب رسول الله ﷺ لحليمة نفسها وزوجها[3].

فهي مكافأة لحليمة على معروفها اليسير، بأن دلتهم على محالّ بني سليم، فلم يدع ﷺ هذا المعروف يذهب سدًى، فكانت المكافأة أعظم من المعروف بكثير، إنه الوفاء، ومقابلة الإحسان بأحسن منه.

---

(١) ر: البداية والنهاية (٣/ ١٥٩).

(٢) بلدة شمال مكة، على طريق المدينة، تبعد حوالي (٢٥ كم) عن الأولى.

(٣) ر: زاد المعاد (٣/ ٢٨١)، فقه السيرة (الجميلي) ص (٢٣٩).

٢- وفاؤه ﷺ لأخته الشيماء:

لقد وقعت الشيماء[١] بنت الحارث بن عبد العزى، أخت رسول الله ﷺ من الرضاع، أسيرة مع أسرى هوازن، فقالت لمن أسرها: أنا أخت صاحبكم ! فجيء بها إلى رسول الله ﷺ فقالت: يا رسول الله، أنا أختك من الرضاعة، قال: «**وما علامة ذلك؟**» قالت: عضّة عضضتنيها في ظهري، وأنا متوركتك، فعرف رسول الله ﷺ العلامة، فبسط لها رداءه فأجلسها عليه، وخيَّرها وقال: «**إن أحببت فعندي محببة مكرمة، وإن أحببت أن أمتعك وترجعي إلى قومك فعلت؟**» قالت: بل تمتعني وتردّني إلى قومي، فمتّعها رسول الله ﷺ وردّها إلى قومها. وفي رواية: أن رسول الله ﷺ قال لها: «**إن تكوني صادقةً فإن بك منّي أثرًا لا يبلى**» فكشفت عن عضدها فقالت: نعم يا رسول الله، وأنت صغير فعضضتني هذه العضة ! فبسط لها رسول الله ﷺ رداءه ثم قال: «**سلي تعطَيْ، واشفعي تشفَّعي**»[٢]. وفي رواية أخرى: فرحّب بها ﷺ وبسط رداءه، فأجلسها عليه ودمعت عيناه... فأسلمت، وأعطاها رسول الله ﷺ نعمًا وشاءً وثلاثة أعبد وجارية[٣].

---

(١) قيل: اسمها حذافة، قال ابن إسحاق: إن إخوة النبي ﷺ من الرضاعة: عبد الله، وأنيسة، وحذافة، وحذافة هي شيماء. وكانت تحضن النبي ﷺ مع أمها، وكانت ترقّص النبي ﷺ وهو صغير وتقول: [الرجز]

يا ربنا أبق لنا مُحَمَّدًا حتى أراه يافعًا وأمردا
ثم أراه سيِّدًا مسوّدا وأكبتْ أعاديه معًا والحسّدا
وأعطه عزًّا يدوم أبدًا

ر: الإصابة (٨/ ٢٠٦).

(٢) ر: البداية والنهاية (٤/ ٤٢١)، زاد المعاد (٣/ ٤٧٤).

(٣) ر: الإصابة (٨/ ٢٠٦).

فانظر إلى هذا الوفاء، وهذه الرقّة، وهذا الحنان ! فلم يُنْسِه ﷺ النصر الوفاء لمن صنع معه معروفًا لأخته من الرضاع، وحاضنته مع أمها حليمة السعدية رضي الله عنها، الذين طالما أرضعوه وأحبوه منذ أن كان صغيرًا ﷺ، فهو أهل الوفاء وردّ الجميل.

المطلب الثالث

إرساء النبي ﷺ قواعد العدالة والمساواة بعد النصر

لم يغفل النبي ﷺ عن قول ربه سبحانه: ﴿ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴾ [الحج: ٤١]. فعندما أكرمه ربه سبحانه بالنصر، ومكّنه في الأرض، سارع إلى تطبيق أحكام ربه سبحانه، فطهّر الكعبة المشرّفة من الدّنسِ والأرجاس، كسّر الأصنام، وطمس معالم الصور، وقام خطيبًا في أهل مكة معلنًا قواعد الدستور الإسلامي قائلاً: «**لا إله إلا الله وحده لا شريك له، صدق وعده، ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده، ألا كل مأثرة[1] أو دم يدّعى فهو تحت قدميّ هاتين، إلا سدانة البيت[2]، وسقاية الحاج، ألا وقتيل الخطأ شبه العمد بالسوط والعصا، ففيه الدّية مغلظة، مائة من الإبل، أربعون منها في بطونها أولادها، يا معشر قريش: إن الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية، وتعظّمها بالآباء، الناس من آدم، وآدم من تراب، ثم الآية: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾** [الحجرات: ١٣] **ثم قال: يا معشر قريش، ما ترون أني فاعل فيكم؟ قالوا: خيرًا،**

---

(١) **المأثرة:** الخصلة المحمودة، التي تُتوارث ويتحدث بها الناس.

(٢) أي: خدمته.

أخ كريم، وابن أخ كريم، قال: اذهبوا فأنتم الطلقاء»[(١)].

إنه دستور جديد يسود في مكة المكرمة، عماده التوحيد، والعدالة، ومكارم الأخلاق. ولقد سارع ﷺ إلى تطبيق أبرز بنود هذا الدستور، ألا وهو العدالة، وقد تجلى ذلك في موقفين اثنين: ردّ مفاتيح الكعبة لأهلها، وإقامة حدّ السرقة على السارق.

أولاً: ردّه ﷺ مفاتيح الكعبة إلى أهلها

فعندما دخل النبي ﷺ مكة عام الفتح (٨هـ) أغلق عثمان بن طلحة[(٢)] البيت، وصعد السطح، فطلب رسول الله ﷺ المفتاح، فقيل: إنه مع عثمان، فطلبه منه فأبى وقال: لو علمت أنه رسول الله لم أمنعْه المفتاح، فلوى علي بن أبي طالب رضي الله عنه يده، وأخذ منه المفتاح، وفتح الباب، فدخل رسول الله البيت وصلى فيه ركعتين، فلما خرج سأله العباس أن يعطيه المفتاح؛ ليجمع له بين السقاية والسدانة، فأنزل الله تعالى الآية: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا﴾ [النساء: ٥٨]، فأمر رسول الله ﷺ عليًّا أن يردَّ المفتاح إلى عثمان ويعتذر إليه، ففعل ذلك عليّ. وفي رواية: أن النبي ﷺ دعا عثمان، فدفع إليه المفتاح وقال: **«خذوها يا بني طلحة بأمانة الله، لا ينزعها منكم إلا ظالم»** وفي رواية أخرى: **«خذوها يا بني طلحة خالدة تالدة، لا يأخذها منكم إلا ظالم»**[(٣)].

---

(١) ر: سيرة ابن هشام (٢/ ٤١٢).

(٢) هو: عثمان بن طلحة بن أبي طلحة (اسمه عبد الله)، حاجب البيت، أسلم عام الفتح، وقيل: أثناء صلح الحديبية، قتل أبوه وعمه عثمان يوم أحد (٢هـ)، سكن المدينة إلى أن مات فيها سنة (٤٢هـ)، وقيل: استشهد بأجنادين. ر: الإصابة (٤/ ٣٧٣).

(٣) ر: أسباب النزول (الواحدي) ص (١١٦ - ١١٧)، الجامع لأحكام القرآن (٦/ ٤٢٣)، سورة النساء، زاد المعاد (٣/ ٤٠٩).

وما كان من ثمرة هذا العدل والوفاء، إلا أن أسلم عثمان بن طلحة، وكان ذلك خيرًا وبركة عليه وعلى ذريته إلى يوم القيامة، وقالوا: إن مفاتيح الكعبة لا تزال بيد ذريته رضي الله عنه حتى الآن.

ثانيًا: إقامة النبي ﷺ حدّ السرقة

فقد حصل أن سرقت امرأة مخزومية من أشراف قريش بعد الفتح، وعلمت قريش أن عاقبة الأمر إقامة الحدّ، وهو القطع، فاستشفعت بأسامة بن زيد رضي الله عنهما، حبّ رسول الله ﷺ، ولكن هيهات، إذ لا بد من إقامة حكم الله تعالى، وإرساء قواعد العدالة، فأنكر النبي ﷺ على أسامة شفاعته، ثم قام خطيبًا، فأثنى على الله بما هو أهله ثم قال: «**أما بعد، فإنما أهلك الناس قبلكم أنهم إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحدّ، والذي نفس محمد بيده، لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها، ثم أمر رسول الله ﷺ بتلك المرأة فقطعت يدها**»[1].

فهكذا كانت ثمار النصر، وفتح البلاد، إقامة شعائر الإسلام، وإرساء قواعد العدل والمساواة، وتثبيت الأخلاق والقيم في النفوس، لا الاستئصال وسفك الدماء، والإعاثة في الأرض فسادًا، كما فعل الأعداء ببلاد المسلمين:

١- كان الأسبان يرحّلون الأهالي من البلاد بعد استسلامهم، كما فعلوا مع أهل (بلنسية) سنة (٥٤٧هـ) ويجعلون مساجدهم كنائس، ثم يسومونهم سوء العذاب، ويتعدى إيذاؤهم الأحياء إلى الأموات، فنبشوا قبورهم. وبعد أن استسلم أهل (مرسية) سنة (٦٧٣هـ) حين أخرجوا أهلها بالأمان دون سلاح، ثم غدروا

(١) البخاري (٤٣٠٤) كتاب المغازي.

بهم، وأعملوا فيهم السيوف والرماح وقتلوا جميع الرجال، وسبوا النساء والأطفال[١].

٢- كان التتار يُخرِجون العالِم من المسلمين من بيته في بغداد (٦٥٦هـ) ومعه أولاده ونساؤه، فيأخذونهم إلى مكان بجوار المقابر، فيُذبح العالِم كما تذبح الشاة، وتؤخذ نساؤه وأولاده، إما للسّبي وإما للقتل ! وأخذوا يتعقبون المسلمين في الشوارع والمساجد والمكتبات، فكان المسلمون يهربون ويغلقون على أنفسهم الأبواب، فيحرق التتار الأبواب أو يقتلعونها ويدخلون عليهم، فيهرب المسلمون إلى أسطح الديار، فيصعد وراءهم التتار، ثم يقتلونهم على الأسطح، حتى سالت الدماء بكثرة من ميازيب المدينة ! ويقتلون الشيوخ والنساء والرّضع[٢].

٣- وعندما دخل الفرنجة (الصليبيون) بلاد الشام، هاجموا مدينة المعرّة[٣] (١٠٩٨م)، واستبسل أهلها بالدفاع عنها، فوعد الزعيم الفرنجي الأهالي بالإبقاء على حياتهم إذا توقفوا عن القتال، وانسحبوا من بعض الأبنية، فاستكان الأهالي إلى كلامه بيأس، واحتشدت العائلات في بيوت المدينة وأقبيتها تنتظر طوال الليل وهي ترتعد! وعندما كان الصباح، كانت المذبحة ! أعملوا فيهم السيف ثلاثة أيام، فقتلوا ما يزيد على مائة ألف وسبوا الكثير، ولم تقف عند هذا الحدّ عصبيتهم، فأخذوا يَشُكّون الأولاد في سفافيد ويلتهمونهم مشويين على النار![٤].

هذه أخلاق غير المسلمين عند دخولهم البلاد، كما قال تعالى على لسان

---

(١) ر: التاريخ الأندلسي ص (٤٧٨ - ٤٨١).

(٢) ر: قصة التتار ص (١٥٠ - ١٥٣).

(٣) هي: مدينة الشاعر أبي العلاء المعري، تبعد (٨٠كم) جنوبي حلب في سوريا.

(٤) ر: الحروب الصليبية كما رآها العرب ص (٦٣).

ملكة سبأ: ﴿إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا۟ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوٓا۟ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً﴾ [النمل: ٣٤]، أما أخلاق النبي المصطفى ﷺ فهي: التواضع، والوفاء، وإقامة شعائر الله تعالى، وإرساء قواعد العدل والمساواة.

والخلاصة من هذا الفصل: أن أخلاقيات الحرب التي تعامل بها النبي ﷺ مع أعدائه بعد انتهائه، تجلت في النقاط التالية:

١- العفو عن الأعداء ومسامحتهم:

- **أما العفو**: فكان بإصداره ﷺ العفو العام، والعفو عمن أرادوا الغدر به ﷺ.

- **وأما المسامحة**: فقد تجلت بسماحته ﷺ بردّ الفيء، والإقامة على عَرْصَة القوم أيامًا بقصد إكرامهم، ومسامحة من جاءه ﷺ تائبًا مسلمًا.

٢- الآداب مع أسرى الحرب: وقد تجلى ذلك بالرحمة والإكرام.

- **أما الرحمة بهم**: فظهرت في اختياره ﷺ الفداء على القتل، وثمة توجيه لقتل بعض الأسرى، ولقد كان يغضب ﷺ للعجلة في قتلهم، وينهى عن قتل الأسير صبرًا، كما ينهى عن التفريق بين الجارية وولدها، ويحترم مشاعر الأسرى.

- **وأما إكرامهم**: فقد تجلى ذلك في المنّ عليهم، وحسن معاملتهم، وزواجه ﷺ بالأسيرات؛ تكريمًا لهنّ.

٣- الآداب عند النصر: وظهرت هذه من خلال تواضعه ﷺ عند الفتح، ووفائه للأموات والأحياء من الأعداء، كما توّج ذلك ﷺ بإرساء قواعد العدالة والمساواة في المجتمع، فقد ردّ مفاتيح الكعبة إلى أهلها ﷺ، وأقام حد السرقة؛ وذلك تطهيرًا للمجتمع.